

فديريكو غرسيه لوركا

شاعر في نيويورك

١٩٢٩-١٩٣٠

ترجمة ماهر البطوطي

شاعر في نيويورك

١٩٢٩-١٩٣٠

تأليف
فديريكو غرسيه لوركا

ترجمة
ماهر البطوطي

هنداوي

شاعر في نيويورك

فديريكو غرسيه لوركا

Poeta en Nueva York

Federico García Lorca

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٥٨ ٢

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإسبانية عام ١٩٤٠.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

كان يومًا ما زلتُ أذكره من عام ١٩٦١م حين قرَّرت على نحوٍ قاطع أن أتَّخذ الكتابةَ والترجمة مهنةً أساسية لي. كنتُ أدرس آخِر سنة في قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة، وقد تشبَّعتُ بالمقررات الدراسية، خاصةً في تلك السنة، وتأثَّرتُ برواية «جيمس جويس»؛ «صورة للفنان في شبابه»، التي قرَّر بطلُها نذْرَ نفسه للأدب والفن والجمال بكل أشكاله. كذلك درسنا «همنجواي» وحياته وأسلوبه الجديد في الكتابة. وكنتُ أُتابع ما يَصدُر من كتب مهمة خارج مقررات الدراسة، فتأثَّرتُ بأدب «ألبير كامي» وفلسفته، وكتاب «اللامنتمي» الذي كتبه «كولِن ولسون» وأصبح حديثَ الأدباء.

وكنت قد بدأت القراءة وجمْعَ الكتب منذ كنت في العاشرة من عمري، فنشأت على كتب «توفيق الحكيم» و«طه حسين» و«نجيب محفوظ» و«يوسف السباعي» وشعر «أحمد شوقي». وبدأت أيضًا في جمع الكتب والسلاسل الجميلة التي كانت تَصدُر في مصر في الخمسينيات، ومنها: «الهلال» و«كتاب الهلال» و«روايات الهلال»، و«اقرأ»، و«كتب للجميع»، وكتب ومطبوعات «كتابي» و«الكتاب الذهبي»، وغير ذلك.

وبعد التخرُّج في الجامعة، عرفتُ أن مَن يريد أن يتَّخذ الكتابةَ مهنة، فعليه إجادةُ لغته العربية إجادةً تامة، وكذلك ألَّا يعتمد في معيشته على مكافآت الكتابة؛ فدرست القرآن الكريم وتَدبَّرت آياته ولغته، وقرأت كُتب النحو المتاحة، وما طالَته يدي من كتب التراث العتيقة. ولم أبدأ الكتابةَ إلا بعد أن شغلتُ وظيفةً مناسبة بوزارة التعليم العالي بالقاهرة، تترك لي وقتًا كافيًا بعدها للقراءة والكتابة. ولما كنتُ أريد الكتابة في النقد الأدبي، كانت أوائل مقالاتي نقدًا وعرضًا لما أحببتُه من الكُتاب والأدباء. ثم جاءت الترجمة وأفسحتُ لها بعضَ الوقت أولًا، ثم زحفَت على معظم الوقت بعد ذلك. وكان أول كُتبي المنشورة عن «إرنست همنجواي»، ثم رواية «جيمس جويس» التي أحببتها. وبدأتُ في دراسة اللغتَين

الإسبانية والفرنسية قبل أن تَنتدبني الوزارة للعمل مُلحقًا ثقافيًّا في مدريد، حيث قضيتُ أكثر من أربع سنوات.

وبعد عودتي من إسبانيا، قضيتُ أربعَ سنوات أخرى بالقاهرة أُزوِّد المجلات في القاهرة وبيروت بمقالاتي المُؤلَّفة والمترجَمة، قبل أن أَتوجَّه إلى نيويورك للعمل مترجمًا ثم محررًا بالأمانة العامة للأمم المتحدة. وقد عكفت على الكتابة والترجمة عن الأدب المكتوب بالإسبانية من شِعر ورواية ومسرحية، حتى أُساهم في تشييدِ جسرٍ ثقافي للقُراء العرب إلى تلك الثقافة الثرية. ولكن لم أَنسَ اللغات الأخرى، فترجمتُ لشاعر الشعب الأمريكي «والت ويتمان» وبعض آثار اللغة الفرنسية، وزاد إنتاجي بعد التقاعد من العمل حتى قارَبَت أعمالي ثلاثين كتابًا.

ولما كانت الكتب الورقية، رغم أهميتها، تَذْوي وتغيب حروفها بفعل الزمن، فقد رحَّبتُ بقيام مؤسسة «هنداوي» بوضع كُتبي رقميةً على النت لتكون متاحةً لمن يريد قراءتها، والمؤسسةُ بذلك تضطلع بعملٍ مهم في نشر الثقافة وإتاحتها وحفظها على مر السنين.

إلى بيبِّي وكارلوس مورلا.

نظمت أشعار هذا الكتاب،
في مدينة نيويورك في عام
١٩٢٩ / ١٩٣٠ حيث عاش الشاعر
دارسًا في جامعة كولومبيا.

ف. غ. لوركا

بين يدَي الديوان

يضم هذا الديوان القصائد التي كتبها الشاعر غرسيه لوركا إبان زيارته الأمريكية التي قام بها في يونيو ١٩٢٩ واستمرت حتى مارس ١٩٣٠، وكان غرض الرحلة هو دراسة اللغة الإنجليزية في جامعة كولومبيا بنيويورك. ولكنه عاش في نيويورك، وزار ولاية فيرمونت، ثم قام برحلة إلى جزيرة كوبا، وعاد إلى بلاده دون أن يتعلم شيئًا من اللغة الإنجليزية!

ولقد قال لوركا ملخِّصًا تجربته الأمريكية: «لقد كانت من أشد التجارب فائدة في حياتي». ولا غرو؛ فإن إقامته في نيويورك، بإجماع النقاد، قد غيرت رؤيته تجاه الحياة وتجاه الإنسان وتجاه الفن. ويستبين أثر زيارة نيويورك أكثر ما يستبين في القصائد التي أمام القارئ الآن، بما فيها من ابتعاد عما درج عليه الشاعر من استلهام الموروث الأدبي الإسباني — خاصة الأندلسي منه — إلى الغوص في التجربة السيريالية التي كانت تطرق أبواب أوروبا آنذاك بقوة، والتي كان من أقطابها عددٌ من أصدقاء الشاعر المقربين، وعلى رأسهم الرسام سلفادور دالي والسينمائي لويس يونيو بيل. وإن ما ساعد على تفجر الصورة السيريالية في أعمال الشاعر في هذا الديوان هو ذلك التناقص الحاد الذي وجده لوركا بين مدينته الأندلسية الهادئة غرناطة، وبين ما وجده في العالم الجديد، متمثلًا في حاضرة المادة والمال وناطحات السحاب وكل ما هو جديد ومثير.

ومن المثير للأسى أن لوركا لم يعِش ليرى ديوانه منشورًا؛ إذ إنه قُتل عام ١٩٣٦م غداة الحرب الأهلية الإسبانية في ظل ظروف فاجعة أوردت وصفًا لها في كتابي المعنون «لوركا شاعر الأندلس» الذي أصدرته الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٣. وقد ترك الشاعر مخطوطة الديوان لدى أحد أصدقائه — يدعى خوسيه برجامين — في ربيع عام ١٩٣٦م. وعند اقتراب هزيمة الجمهوريين في الحرب الأهلية، غادر برجامين إسبانيا إلى باريس ومنها إلى المكسيك حيث أسس دار «سينيكا» للنشر. وقد أصدر الديوان عن دار النشر هذه في

يونيو ١٩٤٠م. ومنذ ذلك الحين، صدرت طبعات كثيرة للديوان، فيها اختلافات كثيرة من حيث عدد القصائد وإهداءاتها، وهذا راجع إلى عدم وجود طبعة نهائية صادرة في حياة الشاعر. وقد قمت بترجمة المجموعة التي يتضمنها الديوان في الأعمال الكاملة للوركا الصادر عن دار النشر الإسبانية أجيلار عام ١٩٧٢.

وبالإضافة إلى التأثيرات السيريالية التي تستبين في القصائد، فإن المعلومات التي أوردها الشاعر عند إلقائه بعض هذه القصائد شفويًّا — والتي نترجم جانبًا منها في الفصل التالي — تعرض الكثير من انطباعات الشاعر في تجربته الأمريكية، والمشاعر التي ساهمت في تشكيل الصور الغريبة التي تزخر بها هذه القصائد. ومن ناحية أخرى، من المهم الإشارة إلى أسماء بعض أدباء اللغة الإنجليزية الذين اهتم لوركا بالتعرف على إنتاجهم الشعري — ولو عن طريق اللغة الإسبانية أو شرح الأصدقاء — وعلى رأسهم «وولت ويتمان» و«إدجار آلان بو» و… «ت. س. إليوت» الذي ورد ذكره في تقديم القصائد والذي أشار النقاد إلى أُلفة لوركا بقصائده الرئيسية حتى ذلك الوقت، وبخاصة «الأرض الخراب» التي صدرت عام ١٩٢٢، وسيجد القارئ شبهًا كبيرًا بصور عقم الحياة المادية الحديثة ووحدة الإنسان وعزلته المريرة في الصور اللوركية الفيويوركية وبين مثيلاتها في «الأرض الخراب» و«الرجال الجوف» وغيرهما من قصائد إليوت.

ويأمل المترجم، بصدور هذا الديوان باللغة العربية، أن يسهم نشره في ميدان النقد المقارن، من ناحية التأثير الذي مارسه شعر لوركا وصوره الفنية — حتى في ترجماته الإنجليزية والفرنسية، وفي أصله الإسباني — في الشعر العربي الحديث وخاصة شعر المهجر العربي.

وثمة ملاحظة لا بد من الإشارة إليها في خاتمة المطاف؛ ذلك أنني قد صحبت لوركا أعوامًا طوالًا بدأت في القاهرة في الستينيات حينما كنت أبحث عن أخباره وأتلمس أشعاره وسيرته في النادر من الكتب الإنجليزية التي كنت أجدها آنذاك. ثم أتيحت لي فرصة فريدة حين عملت زهاء خمس سنوات في مدريد، فطالعت كل ما وقعت عليه يداي من أدبه وفنه وما كُتب عنه من شروح ونقد؛ وشددت الرحال إلى مدينته وإلى الأماكن التي ارتبطت بحياته وإنتاجه الفني. وفي تلك الفترة، طالعت لأول مرة قصائد شاعر في نيويورك، بلغتها الأصلية، وفهمت منها ما فهمته، واستوعبت معظمها عن طريق الحدس الشعري. ثم حملتني الحياة بعد ذلك في ١٩٧٨ إلى العمل في نيويورك، تلك المدينة الهائلة الرهيبة التي مثلت في ذهني مسبقًا كل ما عناه الكتاب والشعراء عن الحياة المادية وسيطرتها على النفس الإنسانية.

وإني لأشهد أن حياتي في نيويورك — حيث أقيم حتى الآن — قد جعلتني أغوص في قصائد لوركا وأفهمها فيما يزيد كثيرًا عن فهمي السابق لها. ولا عجب أن عدت إلى الديوان، وكنت قد أعددت ترجمة مبدئية له خلال ثلاثة شهور أسطورية في برشلونة عام ١٩٧٦، وأجريت فيها من التغيير والتبديل الشيء الكثير، بما يعكس فهمي الأصدق لما خامر فؤاد لوركا من مشاعر أنتجت الصور الفنية الغريبة والفريدة التي يحتويها الديوان.

وأملي أن أكون قد نجحت في نقل أثارةٍ من الرؤيا التي حاول لوركا أن ينقلها إلى القارئ عن طريق هذه القصائد.

نيويورك في ١ فبراير ١٩٩٥م

تقديم الشاعر لقصائده

سيداتي سادتي:

كلما وقفت لأتحدث أمام مجموعة كبيرة من الناس، يجول في خاطري دائمًا أنني قد دخلت خطأً إلى القاعة. وثمة أيدٍ لبعض الأصدقاء قد دفعتني دفعًا إلى هنا، وها أنا أمامكم الآن. والعرض الوحيد الذي يمكن أن أقدمه لكم اليوم هو بعض الشعر الحي المرير. ولربما أمكنني أن أفتح عينَي ذلك الشعر على اتساعهما أمام أنظاركم.

لقد قلت «شاعر في نيويورك» بينما كان يتعين عليَّ أن أقول «نيويورك في شاعر». والشاعر، بكل بساطة، هو أنا. شاعر لا حظَّ له من الموهبة ولا العبقرية، ولكنه يستطيع أحيانًا أن يهرب عن طريق حافة المرآة بسرعة أكبر مما يستطيع أن يفعل معظم الأطفال. شاعر يأتي إلى هذه القاعة وهو يحب أن يتخيل أنه إنما يعود إلى غرفته، وأنكم أصدقاؤه المقربون، فإنه لا يمكن أن يكون هناك شعر مكتوب ما لم تُستعبد العيون للسطر الغامض، ولا شعر مقروء ما لم تكن الآذان طيعة وودية. وبهذا يمكن للكلمة أن تخرج وأن تحمل دماءً إلى شفاه المتكلم، وتحمل سماءً إلى جبين المستمع.

وعلى كل حال، يجب على المرء أن يتكلم بوضوح. إنني لم آتِ إلى هنا كي أرفِّه عنكم؛ فليس ذلك بوسعي، وببساطة: لا يهمني أن أقوم به. إنني هنا كيما أحارب. أحارب يدًا بيد ضد الجمهور اللامبالي. فأنا لن ألقي محاضرة، بل قراءة شعرية — مقدمًا جسدي، منهجي، مشاعري — وبحاجة إلى أن أدافع عن نفسي ضد التنين الهائل الكامن هناك والذي يمكن أن يأكلني حيًّا بتثاؤباته ورءوسه الثلاثمائة! هذا هو ما أعني بكلمة أحارب.

قبل أن أقرأ القصائد على هذا الجمهور الكبير، يجب عليَّ أن أبتهل إلى ربة الشعر كيما تفيض علينا بالإلهام. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لكم بها أن تنجحوا في العمل الصعب لفهم الاستعارات الشعرية حالما تصور لكم، دون الاعتماد على الذكاء أو

على الإحساس النقدي، وكيما يمكنكم أن تقتنصوا، بنفس السرعة التي أقرأ بها، التصميم الإيقاعي للقصيدة. ذلك أنه لا يمكن الحكم على قصيدة ما من قراءة واحدة لها، وبخاصة قصائد مثل تلك المليئة بما أسميه «وقائع شعرية»، تستجيب لمنطق شعري خالص، وتتبع أبنية الانفعال والمعمار الشعري. فقصائد من هذا النوع لا يُحتمل أن تُفهم دون عونٍ صادق من ربة الشعر.

إني لن أحكي لكم ما هي نيويورك «من الخارج»؛ لأن لنيويورك — مثل كل المدن الكبرى الأخرى — كتبًا عديدة تصفها. كما أنني لن أحكي عن رحلتي. إن ما سأقدمه هو رد فعلي الوجداني العاطفي، بصدق وعفوية: وهما خاصيتان لا تتأتيان للمفكرين إلا بصعوبة؛ ولكنهما تتأتيان بسهولة للشعراء.

إن أول عصرين يلمسهما الزائر في المدينة الكبيرة هما المعمار فوق الإنساني والإيقاع المحموم. الهندسة والأسى. فللوهلة الأولى، يمكن أن يختلط الإيقاع بالبهجة، ولكن حين ينظر المرء في رويَّة أكثر إلى آلية الحياة الاجتماعية والاستعباد المؤلم للإنسان والآلة على السواء، فسوف يرى أنها ليست سوى نوع من الأسى الذي يجعل حتى الجريمة والعصابات وسائل هروب يمكن الإغضاء عنها.

ترتفع البنايات الحادة الجوانب إلى السماء، بلا رغبة منها أن تكون سحابًا أو أن تطلب مجدًا. إن زوايا المعمار القوطي وحوافه تخرج من قلوب الموتى المدفونين، ولكن هذه الزوايا والحواف تصعد في برود نحو السماء في جمال لا جذور له، ولا تبين عن شوق، بل عن توافق غبي وعجز كامل عن أن تسمو أو تنتصر — كما يفعل المعمار الروحي — على النوايا الأدنى للمهندس المعماري. ليس من شيء أكثر شاعرية وهولًا من معركة ناطحات السحاب مع السماوات التي تظللها. إن الثلوج والمطر والغمام تُبرز الأبراج الرحيبة أو تغرقها أو تخفيها، بيد أن تلك الأبراج، معادية للأسرار وعمياء تجاه أي نوع من اللعب، تجزُّ ضفائر المطر وتلمع سيوفها الثلاثة آلاف عبر بجعة الضباب الرقيقة.

ولا يمر سوى وقت قصير قبل أن يدرك المرء أن هذا العالم الهائل ليست له جذور، ويفهم لماذا كان على المتنبئ إدجار ألان بو أن يعانق الأسرار ويدع الانتشاء الودي يغلي في عروقه.

ولقد استرجعت، أنا الجوَّال المنفرد، طفولتي على هذا النحو (يقرأ قصيدة «١٩١٠، فاصل موسيقي»).

وفي القصيدة الصغيرة التالية، تجولت وحيدًا، وقد استنفدني إيقاع الإعلانات الكهربائية الضخمة في «تايمز سكوير»، وهربت من جحافل النوافذ العظمى حيث لا

يوجد شخص واحد لديه الوقت كيما يراقب سحابة أو يتحادث مع نسمة من تلك النسمات الرقيقة التي يرسلها في عناد البحر الذي لا يجد من يرد عليه (قصيدة «عودة من جولة»).

ولكن، عليك أن تخرج، وأن تقهر المدينة، وألا تستسلم لردود الفعل العاطفية دون أن تكون قد احتككت بالجماهير في الطرقات وبجموع الناس القادمين من جميع أنحاء العالم.

ولهذا فقد خرجت إلى الطرقات، وقابلت السود. ونيويورك هي ملتقى كل أعراق العالم، بَيد أن الصينيين والأرمن والروس والألمان يظلون أجانب غرباء. وهكذا يظل الجميع ... ما عدا السود. ليس هنالك من شكٍّ في أن السود يمارسون تاثيرًا عظيمًا في أمريكا الشمالية، وأنه مهما يقول البعض، فإن السود هم أرقُّ عنصر في العالم وأكثره روحانية. ذلك لأنهم يؤمنون، لأنهم يأملون، ويغنُّون.

وإذا جال المرء عبر حي «البرونكس» أو «بروكلين»، حيث يعيش الأمريكيون الشقر، فإنه يستشعر شيئًا من الصمم: الناس الذين يحبون الجدران التي تحميهم من النظرات الجائلة: ساعة حائط في كل منزل ... إلخ. ولكن، في أحياء السود، هناك شيء من التبادل المستمر للبسمات؛ اهتزاز أرضي عميق يغطي أعمدة النيكل بالصدأ؛ الصبي الصغير الجريح الذي إذا تطلعت إليه طويلًا فسوف يقدم لك فطيرة التفاح التي يأكلها.

اعتدت كل صباح أن أنطلق ماشيًا من الجامعة التي أعيش فيها، ولم أعد بعد «مستر لوركا» المرتعد، كما كان يسميني أساتذتي؛ بل أصبحت «الصبي النائم» الغريب، كما كانت تناديني الساقيات في المقاهي. وبما أنني أردت أن أتبين كيف يفكر السود، فقد راقبتهم عن كثب وهم يرقصون؛ فالرقص هو الطريقة الحزينة الفريدة التي يعبرون بها عن آلامهم. وعندها، كتبت هذه القصيدة «نمط السود وفردوسهم».

ولكني لم أعبر عن نفسي التعبير الصحيح. لم يكن ما هو أمامي نمطًا جماليًّا ولا فردوسًا أزرق. إن ما كنت أتطلع إليه وأمشي من خلاله وأحلم به هو أشد المدن السوداء أهمية في العالم، هارلم. إنه حي من المنازل التي تضرب إلى الحمرة، مليء بعازفي البيانو وأجهزة الراديو ودور السينما، ولكنه يصطبغ بالريبة التي يتصف بها هذا العنصر. أبواب نصف مغلقة، أطفال سود ناصعون يخافون من الأثرياء القاطنين في «بارك آفنيو»؛ جرامافونات تتقطع أغانيها فجأة؛ ترقب العدو الذي يمكن أن يأتي من صوب «إيست ريفر» ويصوب نيرانه حيث يعيشون. لقد أردت أن أكتب قصيدة العنصر الأسود في أمريكا الشمالية، وأن أظهر الألم الذي يشعر به السود في عالم مخالف لهم. إنهم عبيد ما اخترع

الرجل الأبيض من آلات، في خوف دائم أن ينسوا يومًا كيف يشعلون الموقد الغازي أو كيف يقودون السيارة أو كيف يعقدون ربطة العنق، يخافون أن ينشبوا شوكة الطعام في أعينهم. إن ما أعنيه هو أن هذه الاختراعات ليست من صنعهم. إن السود يعيشون على أشياء مستعارة؛ وعلى الآباء أن يحافظوا على نظام صارم في بيوتهم لئلا يعبد النسوة والأطفال أسطوانة الجرامافون أو يأكلوا إطارات السيارة.

بَيد أنني كنت أحتج كل يوم. كنت أحتج لرؤيتي الصغار السود يختنقون من الياقات الصلدة. كنت أحتج إذ أرى هذا القدر من الأجساد مسروقًا من الفردوس وبين يدي اليهود ذوي الأنوف الثلجية والأرواح النشافية، وكنت أحتج ضد أشد الأشياء حزنًا على الإطلاق، وهو أن السود لا يريدون أن يكونوا سودًا، وأنهم يخترعون مراهم تزيل عن شعرهم ذلك التجعد اللطيف، ومساحيق تحيل وجوههم إلى اللون الرمادي، وأشربة تملأ خصورهم وتذوي شفاههم ذات اللون البرتقالي الغض.

كنت أحتج، وبرهان ذلك هو قصيدتي «أنشودة إلى ملك هارلم»، صرخة تشجيع إلى هؤلاء الذين يرتعدون ويفتشون في حرص ولهفة عن جسد المرأة البيضاء (القصيدة).

ومع ذلك، فإن الجانب الوحشي والفائر من نيويورك ليس هو هارلم. ففي هارلم يوجد الدفء الإنساني وتوجد ضجة الأطفال، وهناك بيوت وحشائش، حيث الألم يجد العذاب، والجرح يجد ضماداته العذبة.

إن الجانب المرعب البارد القاسي لنيويورك هو «وول ستريت». ثمة أنهار من الذهب تتدفق إلى هناك من كل أنحاء الأرض، ويأتي الموت معها. هناك، أكثر من أي مكان آخر، يشعر المرء بالغياب التام للروح: جموع من الرجال لا يستطيعون العد بعْد رقم ثلاثة، وجموع أكبر لا تستطيع المضيَّ فيما وراء رقم ستة: الاحتقار للعلم الصافي والاحترام الشيطاني للحظة الراهنة. والشيء المرعب هو أن تلك الجموع التي تملأ هذا الشارع تعتقد أن الدنيا ستظل دائمًا على ما هي عليه، وأن من واجبها الإبقاء على الآلة الضخمة تعمل، ليلًا ونهارًا، إلى الأبد.

لقد كان من حظي أن أرى بعينَي رأسي انهيار سوق الأوراق المالية الذي حدث مؤخرًا، حين فقدوا عدة مليارات من الدولارات، كومًا من النقود الميتة التي انجرفت إلى البحر. إني لم أشعر من قبل قط وسط الانتحارات والهستيريا والإغماء الجماعي للناس بذلك الإحساس للموت الحقيقي، الموت دونما أي أمل، الموت الذي لا يمثل سوى العفن؛ ذلك أن المشهد كان مريعًا وخاليًا من أي هيبة. وأنا، الذي جئت من بلد حيث — كما قال الأب العظيم

«أونامونو»: «تشق الأرض عند الليل طريقها صُعُدًا إلى السماء»، شعرت بما يشبه الدافع الإلهي للهجوم على ذلك المشهد الظلالي، حيث سيارات الإسعاف تجمع المنتحرين ذوي الأيدي المليئة بالخواتم.

ذلك هو السبب الذي وضعت من أجله قصيدة «رقصة الموت في وول ستريت»: القناع الأزرق النمطي، الموت الذي هو موت حقًّا دون ملائكة أو بعث. موت غريب تمامًا عن الروح، همجي وبدائي مثل الولايات المتحدة، ذلك البلد الذي لم يحارب مطلقًا ولن يحارب أبدًا في سبيل السماء (القصيدة).

ثم هناك جموع الناس! ولا يمكن للمرء أن يتخيل كيف هي الجموع في نيويورك، باستثناء ربما «وولت ويتمان» الذي كان يفتش فيها عن العزلة، و«ت. س. إليوت» الذي يعصر الجموع كأنما هي ليمونة في قصيدته، مستخلصًا منها فئران جريحة، وقبعات مبلولة، وظلالًا نهرية.

ولكن، بالإضافة إلى ذلك، حين تكون تلك الجموع ثملة، فإنه يكون أمامنا واحد من أكثر المشاهد حدة في الحياة. و«كوني أيلاند» هي مكان مهرجان كبير يؤمه في أيام الآحاد في الصيف ما يربو على مليون شخص. وهم يشربون ويتصايحون ويأكلون ويتمرغون، ويخلفون المحيط مليئًا بورق الصحف والشوارع مغطاة بالعلب الصفيح وأعقاب السجائر وبقايا الطعام وأحذية مكسورة الكعب. وفي طريق العودة إلى المنزل، تغني الجموع وتتقيأ في مجموعات مئوية فوق أسوار الشاطئ الخشبية. وتتبول جموع في مجموعات ألفية في الأركان، وعلى القوارب المهجورة، أو على نُصب غاريبالدي أو الجندي المجهول.

ولا يمكن للمرء أن يتخيل مدى العزلة التي يشعر بها الإسباني هناك، ولا سيما الأندلسي. إنك إذا وقعت فسيدوسون عليك، وإذا انزلقت في الماء فسيدفنونك تحت لفائف السندويتشات التي يأكلونها.

ويملأ الدوي الذي تحدثه تلك الجماهير المريعة يوم الأحد النيويوركي بكامله، تدق على الأرصفة الجوفاء بإيقاع الاندفاع الهالع (يقرأ قصيدة «منظر الجماهير التي تقيء»).

وتتفق عزلة القصائد التي كتبتها عن الجموع في إيقاعها مع قصائد أخرى لا يتيسر لي وقت لتلاوتها الآن، مثل قصائد «ليلة جسر بروكلين» و«مهبط الليل في باتاري بليس»، حيث يرقص البحارة والنسوة والجنود ورجال الشرطة على البحر المتعب.

ويحل شهر أغسطس، ويقهر القيظ نيويورك مثلما يحدث في بلدة «إستجَّه» الأندلسية، ولا بد أن أرحل إلى الريف.

بحيرة خضراء، مناظر طبيعية تنتثر فيها الأعشاب. وفجأة، يبدو في الغابة شبح امرأة قصية. ويصحبني هناك فتاة صغيرة هي ماري وفتى صغير هو ستانتون. ويعزفان لي الموسيقى ويعلماني في صبر أسماء الرؤساء الأمريكيين. وحين نأتي إلى لنكولن، يقفان ويؤديان التحية العسكرية. ووالد ستانتون مزارع لديه أربعة جياد عمياء في قرية «عدن ميلز». والأم مصابة بالحمى على الدوام. وأجري هنا وهناك، وأشرب مياهًا عذبة، وتنبسط طبيعتي بين أصدقائي الصغار ومناظر الطبيعة.

ووسط مثل هذه البيئة. كان من الطبيعي لأشعاري أن تتخذ رنة الغابات. ومع تعبي من نيويورك وحنيني إلى أبسط الأشياء وأضعف المخلوقات، كتبت قصيدة عن الحشرات، أبدؤها بنشدان العون من العذراء. لقد أردت أن أغني للحشرات التي تقضي وقتها طائرة تسبح لله (القصيدة).

وتنقضي عطلة الصيف؛ ذلك أن «ساتورن يوقف القطارات»، ويجب عليَّ أن أعود إلى نيويورك. ويشق القطار طريقه على طول الحدود الكندية، وأشعر بالشقاء وأحن إلى أصدقائي الصغار. ثم يجيء مرة أخرى إيقاع نيويورك الأهوج. ولكنه لم يعد يثير دهشتي؛ فأنا أعرف آلية الشوارع وأتحدث إلى الناس وأغوص على نحو أعمق في الحياة الاجتماعية. وأشجبها. فأنا قد جئت من الريف ولا أومن أن الإنسان هو أهم شيء في هذه الدنيا. (قصيدة «نيويورك، مكتب واتهام»).

الوقت يمر. وليس الوقت هو وقت قراءة المزيد من القصائد. علينا أن نغادر نيويورك. لن أقوم بتلاوة قصائد عيد الميلاد، أو قصائد الميناء. سوف تقرءونها يومًا ما في الكتاب إذا أردتم ذلك.

ويمر الوقت، وها أنا على ظهر السفينة التي تأخذني بعيدًا عن المدينة المحمومة تجاه جزر الأنتيل الجميلة. ليس هناك بعدُ أبراج تناطح السحاب وتعاركه ولا أفواج من الشرفات تلتهم أكثر من نصف الليل. وتنسج الأسماك الطائرة أكاليل رطبة. والسماء، مثلها مثل تلك المرأة الزرقاء الضخمة التي رسمها بيكاسو، تندفع إلى البحر مفتوحة الذراعين.

لقد هزمت السماء ناطحات السحاب. وعلى البعد، يبدو معمار نيويورك مهولًا، ويحرك المرء مثلما يحركه منظر الطبيعية، منظر الجبال أو الصحراء. ويدافع مبنى كرايزلر عن نفسه من الشمس بقمته الفضية الضخمة. وتبدو الجسور والسفن والقطارات والجبال وقد أصابها الصمم وقيدتها الأغلال: أغلال نظام اقتصادي قاسٍ لا بد أن يُنحر على وجه السرعة! ومصابون بالصمم من جراء التنظيم الزائد عن الحد ولأنهم يفتقرون إلى جرعة كافية من الجنون.

على أية حال، كنت أغادر نيويورك في شيء من الحزن وبإعجاب عميق. كنت أخلِّف الكثير من الأصدقاء هناك، كما أنها أعطتني أكثر التجارب فائدة في حياتي. ولا بد لي من أن أشكرها على أشياء كثيرة، ولا سيما الصور الزرقاء والانطباعات الخضراء التي منحها لي شاطئ نيوجرسي بينما أنا أتمشى هناك مع أنيتا الهندية البرتغالية ومع صوفيا ميجوينوف البورتوريكينية الروسية، ومن أجل متحف الأحياء المائية العظيم وحديقة حيواناتها، حيث شعرت كأنما أنا طفل، وتذكرت كل أطفال العالم.

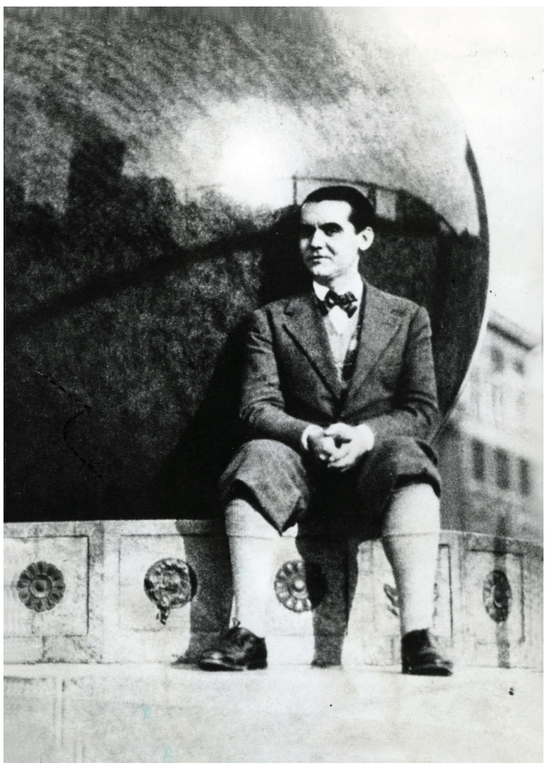
بَيد أن السفينة تمضي بعيدًا، وبدأنا نهلُّ على أشجار النخيل ونتنسم عبير أمريكا ذات الجذور، أمريكا الإلهية، أمريكا الإسبانية.

ولكن ... ما هذا؟ أأنا في إسبانيا مرة أخرى؟ أهو الأندلس العالمي؟ إنها صفرة قادش، بظلال أكثر توهجًا. إنها وردية إشبيلية، أكثر ميلًا إلى الاحمرار. إنها خضرة غرناطة، مع شيء من الفوسفورية الشبيهة بالأسماك.

وتقوم هافانا وسط حقول قصب السكر وضجيج الشخاليل والأبواق والأجراس وموسيقى الماريمبا. ومن يأتي ليرحب بي في الميناء سوى تلك الصبية السمراء ترينيداد، رفيقة طفولتي التي اعتادت أن تتمشى على طول ميناء هافانا.

والسود هناك، ولهم إيقاعات أكتشف أنها نفس إيقاعات الشعب الأندلسي العظيم. سود بلا مأساة، يديرون عيونهم ويقولون: نحن لاتينيون.

وعلى امتداد خلفية من خطوط أفقية عريضة — خط حقول القصب، وخط الشرفات، وخط أشجار النخيل — يقوم آلاف من السود وقد توهجت وجناتهم باللون البرتقالي كأن حرارتهم قد بلغت ١٥٠ درجة، بالرقص على نغمة هذه القصيدة التي نظمتها والتي تأتي إلينا كأنها نسمة من نسمات تلك الجزيرة (قصيدة السود يرقصون على إيقاعات كوبية).



لوركا في حرم جامعة كولومبيا بنيويورك.

الفصل الأول

قصائد الوحدة في جامعة كولومبيا

الغضب الذي يشيع فيه لون الحب،
الحب الذي يشيع فيه لون النسيان.

لويس ثرنودا

عودة من جولة

بين الصور التي تنحو صوب الثعبان،
والصور التي تنشد البلُّور،
قتلتني يد السماء،
فلسوف أطيل شعري.

بصحبة الشجرة المبتورة التي لا تغني،
والطفل ذي الوجه الأبيض البيضاوي.

بصحبة الحيوانات الصغيرة ذات الرأس المحطوم،
والمياه الرثة والأقدام الجافة.
بصحبة كل ما يغشاه التعب الأصم الأبكم،
وفراشة قد غرقت في المحبرة.

أصطدم بوجهي الذي يتغير كل يوم.
قتلتني يد السماء.

١٩١٠ فاصل موسيقي

عيناي هاتان في عام ١٩١٠
لم تريا دفن الموتى،
ولا مهرجان الرماد للمنتحبين في الفجر،
ولا الفؤاد الراجف يقعي كفرس البحر الصغير.

عيناي هاتان في عام ١٩١٠
رأتا الجدار الأبيض حيث تبول الصغيرات،
مخطم الثور، عش الغراب المسموم،
وقمرًا لا يفهمه أحد،
يسطع من كل الأركان،
شذرات من الليمون الجاف،
تحت سواد القنينات الجامد.

عيناي هاتان
قد وقعتا على عنق الفرس،
على الصدر المخترق لسانتا روزا النائمة،
على أسطح الحب،
تضطرم بالأنين وبالأيدي النضرة،
في بستان تلتهم فيه القطط الضفادع.

غرفة مهملات يصل فيها الغبار العتيق،
بين تماثيل وطحالب؛
وصناديق لها صمت الكابوريا المأكولة،
في الموضع الذي يصطدم فيه الحلم مع حقيقته.
هناك ... عيناي الصغيرتان.

لا تسألني شيئًا.
لقد رأيت أن الأشياء حين تنشد مسارها،
لا تلاقي إلا الفراغ.

ثمة آلام من الفراغات التي لا يقطنها أحد،
وفي عيني،
ثمة مخلوقات كاسيات دونما عري.

نيويورك، أغسطس ١٩٢٩

حكاية الأصدقاء الثلاثة ودورتهم

هنري،
إميليو،
لورنثو،
كان ثلاثتهم متجمدين.
هنري متجمدًا في عالم الفراش،
إميليو متجمدًا في عالم المقل وجراح الأيادي،
لورنثو متجمدًا في عالم جامعات لا أسطح لها.

لورنثو،
إميليو،
هنري،
كان ثلاثتهم محترقين.
لورنثو يحرقه عالم ورق الشجر وكرات البليارد،
إميليو يحرقه عالم الدماء والدبابيس البيضاء،
هنري يحرقه عالم الموتى والصحف المهملة.
لورنثو،
إميليو،
هنري،
كان ثلاثتهم مدفونين.
لورنثو في نهد «فلورا»،
إميليو في الخمر التي نُسيت في ثمالة الكأس،
هنري في النملة، في البحر، وفي عيون الطيور الفارغة.

لورنثو،
إميليو،
هنري،
كان ثلاثتهم في يدي،
ثلاثة من الجبال الصينية،
ثلاثة طلال للجياد،
ثلاثة مناظر جليدية وكوخ من السوسن،
إلى جوار أبراج الحمام،
حيث يرقد القمر سطحًا أملس من تحت الديك.

واحد،
وواحد،
وواحد.
كان ثلاثتهم محنطين.
مع ذباب الشتاء،
مع المحابر التي يبولها الكلب ويزدريها الصعلوك،
مع النسمة التي تثلج فؤاد كل الأمهات،
عند أنقاض «جوبيتر» البيضاء
حيث يأكل السكارى الموت.

ثلاثة،
واثنان،
وواحد،
رأيتهم يضلون الطريق وهم يبكون وينشدون،

في بيضة دجاجة،
في الليل الذي أسفر عن هيكله التبغي،

في أحزاني المفعمة بالوجوه وبشظايا القمر المدببة،
في أفراحي ذات العجلات المسنونة والسياط،

في صدري الذي تكدره الحمائم،
في موتي وحيدًا مهجورًا،
إلا من عابر سبيل وحيد أخطأ الطريق.
لقد صرعتُ القمر الخامس،
ونقلت المراوح والصفيق مياها من الينابيع،
والورود تهز اللبن الدافئ المختزن،
من أثداء أحدث المولودين،
في ألم أبيض متطاول.

هنري،
إميليو،
لورنثو،
إن «ديانا» جامدة،
ولكن تخيم السحب أحيانًا على نهديها،
قد ينبض الحجر الأبيض في دماء الوعل،
وقد يحلم الوعل عن طريق عينَي الحصان.

وحين انهارت الأشكال النقية،
تحت زقزقة الأقحوانات،
أدركت أنها قد اغتالتني،
فطافتْ على المقاهي وعلى المقابر وعلى الكنائس،
وفتحت الأنفاق والخزائن،
وأتلفت ثلاثة هياكل لتنزع عنها أسنانها الذهبية.
بيد أنها لم تعثر عليَّ،
ألم تعثر عليَّ؟
كلا، لم تعثر عليَّ.
ولكن ذاع أن القمر السادس قد هرب مصارعًا السيل الجارف،
وأن البحر قد تذكَّر فجأة،
أسماء كل من ابتلعهم في أحشائه.

صباك في «منتون»

أجل، طفولتك، التي أصبحت الآن حكاية الينابيع.

خورخي جيين

أجل، طفولتك التي أصبحت الآن حكاية الينابيع.
القطار، والمرأة التي تملأ صفحة السماء.
وحدتك الخجول في الفنادق،
وقناعك الطاهر الذي يحمل علامة مغايرة.
إنها طفولة البحر وصمتك،
حيث ينحطم الزجاج العليم.
إنه جهلك اليابس،
حيث كان جذعي تحيط به النيران.
لقد أعطيتك قاعدة للحب،
أيها الرجل «الأبولِّي»
نواحًا مع بلبل غريب،
ولكن ها أنت تشحذ سنونك،
يا غذاء الطلال والدمن،
من أجل الأحلام القصيرة المترددة.
أفكارك تمثل أمامك،
ونور الأمس،
وعلامات الاحتمال وإشاراته.
زنارك الرملي الذي لا يعرف الهدوء،
ولا يرعى سوى طرقًا لا تضرب صعدا.
ولكن يجب عليَّ أن أبحث في الأركان،
عن روحك الدفيئة التي تخلو منك ولا تفهمك،
بكل ما في «أبولُّو» السجين من آلام،
حطمت معها القناع الذي ترتديه.
وهناك، أيها الأسد،

هناك يا ثورة السماء،
سوف أدعك ترعى في وجنتيَّ،
هناك يا جواد جنوني الأزرق،
يا نبض الغمام ويا عقرب الدقائق،
يجب أن أبحث عن أحجار العقارب،
وثياب الطفلة التي كانت أمك.
عن نواح منتصف الليل،
والقماش الممزوق،
الذي أزاح أشعة القمر من على صدغ الميت.
أجل، طفولتك التي أصبحت الآن حكاية الينابيع.
أيتها الروح الغريبة التي تقعي في فراغ الشريان،
يا حبي الدائم، يا حبي، يا حبي الذي لا مثيل له!
آه، أجل. إني أحب. يا حبي، يا حبي! دعني.
لا تدعهم يغلقون فمي،
أولئك الذين يبحثون عن سنبلة «زحل» في ندفات الثلوج،
أو الذين يخصون الحيوانات في إحدى السماوات.
عيادة التشريح وغابته،
يا حبي، يا حبي، يا حبي. طفولة البحر.
روحك الدفيئة التي تخلو منك ولا تفهمك.
يا حبي، يا حبي، يا حبي،
تهويم الغزالة فوق صدر البياض اللامتناهي،
وطفولتك، يا حبي، وطفولتك.
القطار، والمرأة التي تملأ صفحة السماء،
لا أنت، ولا أنا، ولا الهواء، ولا أوراق الشجرات.
أجل، طفولتك التي أصبحت الآن حكاية الينابيع.

الفصل الثاني

السود

إلى آنخل ريو

نمط السود وفردوسهم

إنهم يبغضون ظل الطائر،
على مد الوجنة البيضاء،
وصراع النور والرياح،
في غرفة الثلوج الباردة.

* * *

إنهم يبغضون السهم الذي لا جسم له،
منديل الوداع الذي لا يخلف موعدًا،
الإبرة التي تواصل ضخ الحمرة،
في خفر الابتسامة الندية كالحشائش.

* * *

ولكنهم يحبون الزرقة المهجورة،
والتعبيرات المترددة الثيرانية،
وقمر القطبين الكاذب،
ورقصة المياه المتثنية على الشاطئ.

* * *

إنهم يستخدمون علم جذع الشجرة والأثر،
لملء الصلصال بالأعصاب الوضاءة،

ويتزلقون في سلاسة على المياه والرمال،
وهم يتذوقون نضارة رضابهم الألفي المريرة.

* * *

إنما هو في الزرقة التي ترتفع بالصرير،
زرقة لا دودة فيها ولا من أثر نائم،
فيها بيض النعام يتمتع بالأبدية،
حيث الأمطار ترقص وتجول في سلام،

* * *

إنما هو في الزرقة التي لا تعرف تاريخًا،
زرقة ليلة لا تخاف طلوع النهار،
زرقة يكسر فيها عرى الرياح،
جمالٌ من السحب الفارغة التي تهيم في نومها.
هناك تحلم الجذوع من تحت الأعشاب الشرهة،
هناك تشرب الشعب المرجانية يأس المداد،
والنائمون يمحون بروفيلهم تحت عنقود القواقع،
ولا يبقى غير فراغ الرقصات فوق آخر ذرات الرماد.

أنشودة إلى ملك هارلم

بملعقة خشبية،
كان يقتلع عيون التماسيح،
ويلهب مؤخرة القردة،
بملعقة خشبية،

نيران دائمة،
ترقد غافية على أحجار الصوان،
والخنفسات السكرى من شراب الأنيس،
تتناسى طحالب الضيعات.

هذا العجوز الذي يغطيه عش الغراب،
يتجه إلى الموضع الذي ينتحب عنده السود،

بينما ارتفعت ملعقة الملك الضرير،
ووصلت خزانات المياه العفنة.

فرت الورود على طرف منحدرات الهواء الأخيرة،
وعلى أكوام الزعفران،
سحق الأطفال السناجب الصغيرة،
متوردي الوجوه في خبلهم الموصوم.
يتعين علينا أن نعبر الجسور،
ونصل إلى الزنوج الهامسين،
حتى نشعر بعطر رئاتهم يطرق أصداغنا،
بثوبه الأناناسي الدافئ.
يتعين علينا أن نقتل بائع الخمور الأشقر،
وكل أصدقاء التفاح والرمال.
يجب أن نضرب بقبضات مقفلة،
حبات اللوبياء الصغيرة التي ترجف بالفقاعات،
وذلك حتى يغني ملك هارلم مع جمهرته،
حتى تنام التماسيح في صفوف طويلة،
تحت معدن القمر الذي لا يحترق،
وحتى لا يشك أحد في الجمال المطلق،
لمنفضات الريش والمبشرات،
ونحاس المطبخ وآنياته.

أواه يا هارلم! أواه يا هارلم! أواه يا هارلم!
ليس هناك من أسى يعادل عينيك المسحوقتين،
تعادل دماءك ترجف غاضبة داخل الخسوف المظلم،
يعادل عنفك القاني الأصم الأبكم تحت ظلال الأضواء،
يعادل مليكك العظيم الذي يرتدي ثياب البوابين.

وكان الليل ينصدع عن سحالي ساكنة من العاج،
والفتيات الأمريكيات،

يحملن أطفالًا ونقودًا في بطونهن،
بينما الشبان يغشى عليهم على الصليب،
وقد استطالت أطرافهم.
هؤلاء هم.
هؤلاء هم من يشربون الويسكي الفضي إلى جوار البراكين،
ويبتلعون شذرات القلوب على جبال الدببة المثلوجة.
تلك الليلة،
كان ملك هارلم يقتلع عيون التماسيح،
بملعقة جامدة صلبة،
ويلهب مؤخرة القردة،
بملعقة جامدة صلبة.
وبكى السود حيارى،
وسط مظلات وشموس ذهبية.
وشد الخلاسيون المطاط،
يجتاحهم الشوق إلى بلوغ الجذع الأبيض،
والرياح قد طمست المرايا،
وحطمت عروق الراقصين.

سود! سود! سود! سود!
ليس للدماء من منافذ في ليلك المدلهم،
وليس هناك من حياء في وجهك.
الدم يهدر غاضبًا من تحت الجلد،
يعيش في شوكة الخنجر،
وفي صدر المناظر الطبيعية،
تحت الكماشات ونبات الوزال،
لقمر السرطان السماوي.
الدم الذي يبحث في آلاف الدروب،
عن الموت الذي يغطيه الدقيق ورماد الياسمين.
سماوات يابسة مائلة،

حيث تنحدر مجاميع الكواكب على الشطآن،
مع الفضلات المهملة.

الدم الذي يتطلع في بطء بذيل عينيه،
مصوغًا من حشائش الحلفاء المعتصرة ورحيق الأنفاق؛
الدم الذي يغطي الرياح الغافلة بالصدأ،
ويحيلها إلى مجرد أثر،
ويذيب الفراشات على زجاج النوافذ.

إنه الدم الذي يأتي،
الدم الذي سيأتي،
من قمم السقوف والأسطح،
من كل جانب،
ليحرق بلهبه كلوروفيل النسوة الشقراوات،
ويئن تحت أرجل الفراش،
وجهًا لوجه مع أرق الأحواض،
ثم ينصدع إلى فجر من التبغ وصفرة خفيضة.
لا بد من الهرب!
الهرب من حول الأركان،
والانغلاق في الأدوار العليا؛
لأن لباب الغابة سيخترق الشقوق،
ليترك على جسدك آثار خسوف واهية،
وأسًى زائفًا للقفاز الماحل والوردة الكيميائية.

* * *

وفي فترة الصمت العليم،
يبحث الجرسونات والطباخون،
ومن يلعقون بألسنتهم جراح المليونيرات،
عن الملك في الطرقات أو في زوايا الملح.

ريح خشبية من الجنوب،
مائلة فوق الحمأة الزنجية،

تبصق على القوارب المحطومة،
وتدفع المسامير في أكتافها.
ريح جنوبية تحمل أنيابًا وعباد شمس وحروف الأبجدية،
وبطارية فولتية فيها زنابير غارقة.
وكشف النسيان عن نفسه،
بثلاث نقاط من الحبر على المونوكل.
وكشف الحب عن نفسه،
بوجه متفرد خفي على صفحة الحجر،
واجتمع اللبلاب والنوار على السحاب،
في صورة صحراء من الجذوع،
خالية من وردة واحدة.

ذات اليمين وذات اليسار،
في الجنوب وفي الشمال،
يرتفع جدار لا تنفذ منه الشامة ولا إبرة الماء.
لا تبحثوا أيها السود،
عن شق تجدون وراءه القناع المطلق.
بل ابحثوا عن شمس المركز العظمى،
وقد تحولتم إلى أناناسة تطن وتئز.
الشمس التي تنساب خلال الغابات،
على يقين بأنها لن تجد حورية واحدة.
الشمس التي تدمر أرقامًا،
ولم تلتقِ حلمًا أبدًا،
الشمس ذات الوشم تنساب عبر النهر،
وتخور إذ تتبعها التماسيح الأمريكية.
سود! سود! سود! سود!
لا الثعبان ولا حمار الوحش ولا البغل،
يشحب لونه عند الموت أبدًا،
ولا الحطاب يدري متى تموت الأشجار المصطخبة التي يقطعها،

انتظروا تحت ظل أحراش مليككم،
حتى يهاجم الشوكران والعوسج والقريض الأسطح الخلفية.

حينئذٍ أيها السود، حينئذٍ،
تستطيعون أن تقبِّلوا عجلات الدراجة في جنون،
وتضعوا أزواجًا من الميكروسكوبات في كهوف السناجب،
وترقصوا أخيرًا دونما شكوك،
بينما الأزهار الشوكية،
تقتل موسانا على مقربة من أحراش السماء.

آه يا هارلم المتنكرة!
آه يا هارلم التي تهددها جمهرة بذلات دونما رءوس!
همهماتك تصلني،
همهماتك تصلني عبر جذوع الأشجار والمصاعد الكهربية،
عبر لوحات مضيئة رمادية،
حيث تطفو سياراتك المغطاة بالأسنان،
عبر الجياد الميتة والجرائم المنمنمة،
عبر مليكك اليائس الذي تصل لحيته إلى البحر.

كنيسة مهجورة

(موال الحرب العظمى)

كان لي ابن يدعى خوان،
كان لي ابن.
ضل الطريق ما بين الأقواس،
يوم جمعة في ذكرى الأموات.
لقد شاهدته يلعب في الدرجات الأخيرة من القداس،
ويدفع دلوًا صغيرًا من الصفيح في قلب الكاهن.
ورحت أضرب التوابيت،
صائحًا: ابني، ابني، ابني.

واستخلصت ساق دجاجة من وراء القمر،
ثم أدركت أن ابنتي ما كانت سوى سمكة،
تنطلق من عندها المركبات مبتعدة.
كانت لي ابنة،
كانت لي سمكة ميتة تحت رماد المباخر،
كان لي بحر. ممَّ؟ آه يا إلهي، بحر!
وصعدت لأقرع النواقيس،
ولكن الفاكهة كانت تعمر بالديدان.
وأعواد الكبريت المنطفئة،
تلتهم سنبلات القمح في الربيع.
ورأيت طائر اللقلق الكحولي الشفاف،
ينقر رءوس الجنود المحتضرة السوداء.
ورأيت أكواخًا من المطاط،
تدور فيها الأكواب المترعة بالدموع.
لسوف ألقاك في أزاهير القربان،
يا بني العزيز حين يرفع الكاهن البغلة والثور بذراعيه القويتين،
لكي يطرد ضفادع البر التي تحيط بأراضي الكأس المثلوجة.
كان لي ابن عملاق،
ولكن الموتى أشد قوة،
ويعرفون كيف يلتهمون شذرات السماء.
لو كان ابني دبًّا،
لما كنت أخاف التماسيح المستورة،
ولا كنت قد رأيت البحر معقودًا إلى الأشجار،
لكي تضاجعه الكتائب المصطحبة وتثخنه بالجراح.
آه لو كان ابني دبًّا!
سوف ألتف بذلك الدثار الثقيل حتى لا أشعر ببرودة الفطر.
أعلم تمامًا أنهم سيعطونني ردن قميص أو ربطة عنق،
بيد أني سوف أحطم الدفة في وسط القداس،

وعندها يسقط على الحجر،
جنون طيور البنجوين والنورس،
التي سوف تقول للنائمين وللمنشدين في الأركان:
لقد كان لي ابن،
ابن! ابن! ابن!
وكان له، لأنه كان ابنه.
ابنه! ابنه! ابنه!

الفصل الثالث

دروب وأحلام

إلى رافاييل ر. رابون

هناك عصفور من ورق في الفؤاد
يصيح بأن زمن القبلات لم يحن بعد.

فيثنتي ألكساندر

رقصة الموت

القناع الهائل. انظروا القناع الهائل،
كيف ينتقل من أفريقيا إلى نيويورك!

* * *

ها قد راح زمن شجرات الفلفل،
وزمن البراعم الفسفورية الصغيرة.
راح زمن الجمالات التي يهرأ منها اللحم،
وزمن وديان الضياء ترفعها البجعة بمنقارها.

* * *

كان الزمن زمن الأشياء الجافة،
زمن السنبلة في العين والقط المحنط،
زمن الجسور الهائلة يكسوها صدأ الحديد،
وصمت الفلين المطبق.

* * *

كان الاجتماع العظيم للحيوانات الميتة،
تخترقها سيوف الضياء،
البهجة الأبدية للخرتيت ذي الحوافر الرمادية،
والغزالة التي تحمل زهرة الأزل في حلقها.

* * *

يرقص القناع الهائل المنبعج،
في الوحدة الذابلة التي لا تجد لها موجة.
كان نصف جانب الدنيا قد استحال رمالًا،
والنصف الآخر زنبقًا وشمسًا نائمة.

* * *

القناع الهائل.
انظروا القناع الهائل!
رمال، وتماسيح، وخوف ينتثر فوق نيويورك.

* * *

أخاديد من الجير تحاصر سماء فارغة،
حيث ترن أصوات الذين يموتون تحت ركوم السماد.
سماء نظيفة صافية تماثل نفسها تمامًا،
وتزخر جبالها الخفية بالزغب والزنابق المترعة.

* * *

قضت على أدق جذوع الأنشودة،
وانثنت إلى رزم من طوفان العصارة،
عبر راحة الاستعراضات الأخيرة،
ضاربة بذيلها شذرات من المرايا.

* * *

حين كان الصيني يبكي على الأسطح،
دون أن يعثر على عري زوجته،
ومدير البنك يراقب الآلة.

التي تقيس صمت النقود القاسي،
وصل القناع الهائل إلى «وول ستريت»

* * *

لم يكن فيها شيء غريب على الرقص،
تلك السلسلة من العمدان التي تحيل العيون صفرة.
وهناك خط سميك بين أبي الهول وصندوق النقود،
يخترق أفئدة كل الأطفال الفقراء،
والدفعة البدائية ترقص مع الدفعة الآلية،
وهما يجهلان، في ثورة الجنون، الضياء الأصيل.
فما دامت العجلة تنسى تكوينها فبوسعها أن تغني عارية مع قطعان الجياد؛
ولو أحرقت الشعلة المشروعات المثلوجة،
فعلى السماء أن تهرب أمام ضجيج النوافذ.

* * *

أقول: لم يكن هذا المكان شيئًا غريبًا على الرقص.
سيرقص القناع الهائل بين عواميد الدماء وبين الأرقام،
وسط عواصف النضار وأنين العمال المتعطلين،
يعوون أيها الليل البهيم على صفحة زمنك الذي لا يبين فيه الضياء.
آه يا أمريكا المتوحشة! آه أيتها المستهترة!
آه أيتها المتوحشة، مضطجعة على مشارف الجليد.

* * *

القناع الهائل. انظروا القناع الهائل!
يا لها من موجة هائلة من الفطر واليرقات تنتثر فوق نيويورك.

* * *

كنت في الشرفة أصارع القمر،
حين اخترق سرب من النوافذ فخذ الليل؛
ومن عيني كانت تشرب أبقار السماء الحلوة،
بينما نسمات المجاديف الطويلة،
تضرب فترينات «برودواي» الرمادية.

* * *

كانت نقطة الدماء تبحث عن النور في صفار الكوكب،
لكي تتظاهر بأنها بذرة تفاح ميتة.
وهواء الوادي، يدفعه الرعاة،
يرجف رجفة القواقع التي لا من صدفة تحمها.

* * *

ولكن ليس الموتى هم الذين يرقصون،
إني على يقين من ذلك.
الموتى هم الذين قد تشبعوا،
بعد أن التهموا أيديهم بأنفسهم،
إنما هم الآخرون الذين يرقصون مع القناع الهائل وقيثارته.
هم الآخرون، سكارى اللجين، الرجال الباردون،
الذين ينامون حيث تتقاطع الأفخاذ مع الشعلات القاسية!
الذين ينشدون الدودة في أراضي سلالم النيران،
الذين ينهلون في البنوك من دموع الطفلة الميتة،
أو الذين يأكلون في الأركان أهرامات الفجر المستدقة.

* * *

على البابا ألا يرقص!
كلا، عليه ألا يرقص!
ولا الملك،
ولا المليونير ذو الأسنان الزرقاء،
ولا راقصات الكتدرائيات العجفاوات،
ولا البناءون، ولا الماسات، ولا المجانين، ولا اللوطيون.

* * *

ليس غير القناع الهائل هذا،
القناع الهائل هذا ذو الحمى القرمزية العتيقة،
ليس غير القناع الهائل هذا!

* * *

فلتفحِّ الحيات في الطوابق العليا،
فلتملأ نباتات البابونج الأفنية والشرفات بالرجفات،

فلتتحول البورصة إلى هرم من الفطر،
ولتأتِ أعواد اللبلاب من وراء البنادق
وليكن ذلك سريعًا جدًّا، سريعًا جدًّا، سريعًا جدًّا،
آه يا «وول ستريت»!

* * *

القناع الهائل.
انظروا القناع الهائل!
كيف يبصق سم الغابات،
عبر أسى نيويورك الذي لا يكتمل!

ديسمبر ١٩٢٩

منظر الجماهير التي تقيء

(مهبط الليل في «كوني أيلاند»)

المرأة السمينة تتقدم الصفوف،
تقتلع الجذور وتبلل رق الدفوف بالمياه،
المرأة السمينة،
التي تقلب الأخطبوط المحتضر من داخله.
المرأة السمينة، عدوة القمر،
تهرول عبر الطرقات وبين الشقوق الخالية،
وتخلف وراءها جماجم حمائم صغيرة في الأركان،
وتستثير غضب ولائم القرون الأخيرة،
وتنادي شيطان الخبز من تلال السماء النظيفة،
وتصفِّي لهفة إلى الضياء عبر الأنفاق الأرضية.
إنها المقابر. أعرف ذلك. إنها المقابر،
وآلام المطابخ المدفونة تحت الرمال.
إنهم الموتى، والديوك البرية، وتفاحات الأزمنة الأخرى،
هي التي تندفع في حلوقنا.

* * *

ارتفعت الهمهمات من غابة القيء،
مع النسوة الفارغات، مع أطفال من الشمع الساخن،
مع أشجار متخثرة وجرسونات لا يكلون،
يقدمون وجبات من الملح تحت معازف الرضاب.
لا مفر يا بني، تقيأ! لا مفر.
ليس هو قيء الحرس الملكي فوق صدور العاهرات،
ولا هو قيء القط الذي ابتلع ضفدعة من غير قصد.
إنهم الموتى الذين يخمشون بأيديهم الصلصالية،
الأبواب الأردوازية حيث تتحلل السحب والحلوى.

* * *

المرأة السمينة تتقدم الصفوف،
مع أهل السفائن أهل الحانات وأهل الحدائق.
وهز القيء دفوفه في خفة،
وسط بعض فتيات دمويات،
رحن يطلبن الحماية من القمر.
آه يا لوعتي! يا لوعتي! يا لوعتي!
تلك النظرة كانت نظرتي، ولكنها لم تعد بعدُ نظرتي.
تلك النظرة التي ترجف عارية طلبًا للكحول،
وتطلق سفائن لا يصدقها عقل من عند أزاهير أرصفة الميناء.
تلك النظرة كانت سلاحي،
تنبجس من الموجات حيث لا يجرؤ الفجر على المرور.
أنا، شاعر بلا أذرع،
تائه بين الجماهير التي تتقيأ،
ليس لي من جواد دافق العاطفة،
يستطيع أن يحصد أعواد الفطر الكثيفة من صدغي.

* * *

ولكن المرأة السمينة ما زالت تتقدم الصفوف،
والناس تبحث عن الصيدليات،
حيث توجد المداريات المريرة.
وحين رفعوا الراية ووصلت أوائل الكلاب،
عندها فقط تدافعت المدينة كلها إلى شرفات الميناء.

نيويورك، ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩



ملاهي وشاطئ «كوني أيلاند»، في العشرينيات.

منظر الجماهير التي تبول

(ليلية «باتارى بليس»)

بقوا وحيدين:
ينتظرون الدراجات الأخيرة السريعة.
بقين وحيدات:
ينتظرن موت طفل في السفينة اليابانية.
بقوا وحيدين وبقين وحيدات،
يحلمون بمناقير الطيور المحتضرة الفاغرة،
وبالمظلة المرهفة،
التي تنخس ضفدع البر الذي انسحق من فوره،
في صمت له ألف من الآذان،
وينابيع مياه مستدقة،
في الدروب،
التي تقاوم هجوم القمر العاتي.
كان طفل السفينة ينتحب؛
وتحطمت الأفئدة التي هزها الأسى،
من شهود الأشياء كلها والسهر عليها،
ولأن الأسماء الخفية والرضاب والراديوهات النيكلية،
ما تزال تصرخ على آثار الأقدام السوداء،
في الأرض السماوية الزرقاء.
لا يهم أن يصرخ الطفل حين يخزونه بالدبوس الأخير،
ولا يهم أن تنهزم النسمة في نوَّارات القطن،
لأن هناك عالمًا من الموت فيه بحارة أزليون،
يظهرون من عند الأقواس،
ويثلجونكم من وراء الأشجار.
عبثًا تبحثون عن الزاوية التي ينسي عندها الليل،
رحلته وترتقبون صمتًا يخلو من الثياب المزوقة،
ومن القشور ومن النحيب،

لأنه تكفي وليمة العنكبوت الصغيرة،
كيما ينحطم توازن السماء بحالها.
ليس هناك من علاجٍ لأنين السفينة اليابانية،
ولا لهؤلاء الناس المكنونين المتعثرين في الأركان.
يعض الحقل ذيله لكي يجمع الجذور في نقطة واحدة،
ولفة الصوف،
تبحث بين النباتات عن شوقها الطويل الظامئ.
القمر! رجال الشرطة! صفارات عابرات المحيطات!
واجهات من البول، من الدخان،
من شقائق النعمان، من قفازات مطاطية.
كل شيء ينحطم حين يسدل المساء أستاره،
ويفتح ساقيه على الشرفات.
كل شيء ينحطم عند صنابير المياه الفاترة،
لنافورة صامتة مخيفة.
آه يا خلق! آه يا نسوة! آه يا جنود!
لا بد إذن من الترحال عبر أعين البلهاء،
عبر مقاطعات منطلقة،
حيث تفحُّ ثعابين طيعة ملتفة كالأسلاك الشائكة،
عبر مقاطعات مليئة بالقبور التي تنتج تفاحات شديدة النضارة،
وذلك كيما ينهمر الضياء الغامر،
الضياء الذي يخشاه الأثرياء من وراء عدساتهم المكبرة،
ورائحة جسم واحد،
له مصدرا زنبقة وفأر،
وكيما يحترق هؤلاء الناس،
الذين يستطيعون التبول في وسط النواح،
أو على الزجاج،
حيث تتفاهم الموجات التي لا تتكرر أبد الدهر.

جريمة قتل

(صوتان في الفجر عند «ريفر سايد درايف»)

– كيف حدث ذلك؟
– شق في الصدغ.
هذا كل شيء!
ظفر يضغط على الجذع،
دبوس يغوص،
إلى أن يلاقي جذور الصرخة.
والبحر صار ساكنًا بلا حراك.
– كيف، كيف حدث ذلك؟
– هكذا.
– كلا، بهذه الطريقة؟
– أجل.
وطفر القلب من تلقائه.
– آه، آه يا لوعتي!

عيد الميلاد على نهر «هدسون»

تلك الإسفنجة الرمادية!
ذلك البحَّار الذي قطعوا رقبته منذ قليل.
ذلك البحر العظيم،
تلك النسمة ذات الحدود العتماء،
ذلك النصل المرهف يا حبيبي، ذلك النصل المرهف،
كان البحارة الأربعة يصارعون العالم،
عالم أشواك السنابل التي ترى كل العيون،
العالم الذي لا يمكن قطعه إلا على ظهر الجياد.
كان هناك بحَّار، مائة بحَّار، ألف بحار،
يصارعون عالم السرعات المرهفة الحد،

دون أن يدركوا،
أن العالم كان وحيدًا في السماء.

* * *

العالم وحيدا في السماء الوحيدة،
تلال المطارق وانتصار العشب الكثيف،
بيوت النمل تدب فيها الحياة،
والعملات النقدية في حمأة الوحل.
العالم وحيدًا في السماء الوحيدة.
والهواء عند مخارج الضيعات كافة.

* * *

كانت دودة الرض تغني عن رعب العجلة،
وكان البحار المقطوع الرقبة،
يغني للدب المائي الذي يمسك به،
والجميع يغنون «هلُّويا»
هلُّويا. سماء مهجورة.
نفس الشيء. نفس الشيء. هلُّويا.

* * *

قضيت الليل بطوله على السقالات في الضواحي،
تاركًا الدم يسري على أحجار الماكيتات،
معاونًا البحارة على التقاط الشراعات المتهرئة،
وها أنا صفر اليدين وسط خرير منبع النهر.
لا يهم أن يهز طفل جديد،
أغصان شرايينه كل دقيقة،
ولا للأفعى الوليدة،
– مطلقة الأسار تحت الأفنان –
أن تهدِّئ من تعطش من يحملقون في العري إلى الدماء.
إن ما يهم هو هذا:
الفراغ. العالم وحيدًا. منبع النهر.

لا الفجر. خرافة ليس بها من حراك.
هذا فقط: منبع النهر.
آه يا إسفنجتي الرمادية!
آه يا رقبتي التي قطعوها منذ قليل!
آه يا نهري العظيم!
آه يا نسمتي ذات الحدود التي لا أملكها!
آه يا نصل حبي المرهف!
آه أيها النصل الجارح!

نيويورك، ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩



نهر الهدسون.

مدينة لا تنام

(ليلية جسر «بروكلين»)

لا أحد ينام في السماء. لا أحد، لا أحد.
لا أحد ينام.

ومخلوقات القمر تتشمم الأكواخ وتلتف حولها.
ستأتي السحالي الحية،
لتعض الرجال الذين لا يحلمون.
وكل من سيهرب محطوم الفؤاد،
سيجد بانتظاره في الأركان،
التمساح الخرافي،
قابعًا تحت احتجاج النجوم الحنون.
لا أحد ينام في العالم. لا أحد، لا أحد.
لا أحد ينام.
هناك ميت في المقبرة القصية،
يشكو منذ سنوات ثلاث،
لأن ركبته ينعقد عليها سهل قاحل؛
بينما الطفل الذي وسَّدوه الثرى هذا الصباح يبكي بحرارة،
حتى اضطروا إلى استدعاء الكلاب كيما يصمت.

* * *

ليست الحياة حلمًا.
انتباه! انتباه! انتباه!
فنحن نسقط من السلالم كيما نأكل الأرض الرطيبة،
أو نصعد إلى حافة الثلوج مع مجموعة الداليات الذابلات.
ولكن ليس هناك من نسيان، ولا حلم:
بل لحم نيئ.
وتربط القبلات الأفواه،
في شراك من الشرايين الجديدة.
ومن يستشعر الألم من آلامه سيتألم دونما راحة،
ومن يخاف الموت سوف يحمل موته دومًا على كتفيه.

* * *

يومًا ما،
ستعيش الجياد في الحانات،
وستهاجم النملات الثائرات،

السماوات الصفراوات،
التي تلوذ بعيون البقرات.
ويومًا آخر،
سنرى عودة الفراشات المحنطة إلى الحياة.
وإذا مشينا بعد ذلك،
عبر ساحات من الإسفنج الرمادي والمراكب الخرساء،
فسترى خاتمنا يلتمع،
وزهورًا تنبجس من ألسنتنا.

* * *

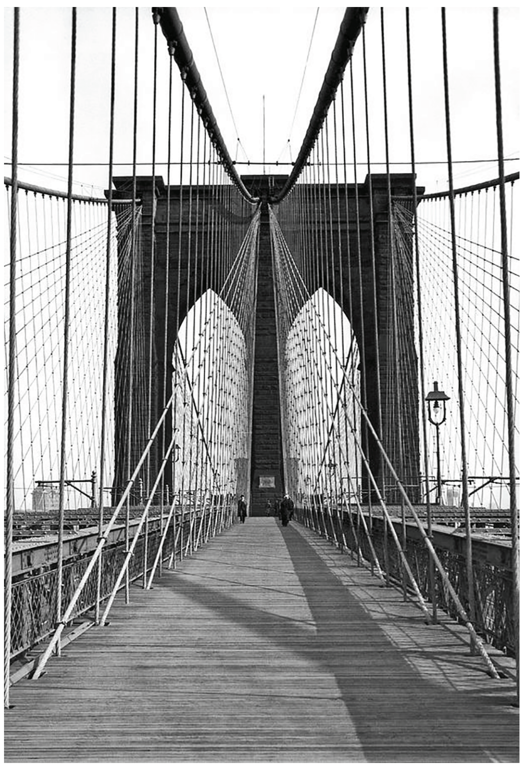
انتباه! انتباه! انتباه!
إن كل من يحمل حتى الآن،
آثار المخالب ووابل الأمطار،
وذلك الصبي الذي يبكي،
لأنه لا يعرف اختراع الجسر،
أو ذلك الميت،
الذي لم يعد لديه إلا رأسه وفردة حذاء،
يجب أن نحملهم إلى الجدار،
حيث تنتظر السحالي والأفاعي،
حيث تنتظر أسنان الدب،
حيث تنتظر يد الطفل المحنطة،
وينتفض جلد الجمل واقفًا،
في رعشة زرقاء عنيفة.

* * *

لا أحد ينام في السماء. لا أحد، لا أحد.
لا أحد ينام.
ولكن إذا أغلق أحدهم عينيه،
فاجلدوه يا أبنائي، اجلدوه!
فلتكن هناك بانوراما من العيون المفتوحة،
والتقرحات المريرة الملتهبة.

لا أحد ينام في العالم. لا أحد، لا أحد.
لقد قلت ذلك من قبل،

ولكن ...
إذا نما الفطر كثيفًا على صدغَي امرئ ما،
فلتفتحوا الباب الأرضي،
لكي يرى تحت شعاع القمر،
الأكواب الزائفة، والسم، وجمجمة المسارح.



ممر المشاة على جسر بروكلين.

بانوراما عمياء لنيويورك

لو لم تكن هي الطيور،
وقد غطاها الرماد،
لو لم يكن هو النحيب يضرب نوافذ العرس،
فإنها هي مخلوقات الهواء الدقيقة،
التي تنفث الدماء الجديدة في الظلمة التي لا تنقشع أبدًا.
ولكن كلا، ليست هي الطيور،
لأن الطيور على وشك أن تصبح ثيرانًا،
ويمكن أن تتحول إلى صخور بيضاء،
لو عاونها القمر،
وهن دائمًا كن صبايا مثخنات بالجراح،
قبل أن يرفع القضاة الستار.
كلنا ندرك الألم الذي يرتبط بالموت،
ولكن الألم الحقيقي غير حاضر في الروح.
ليس في الهواء، ولا في حياتنا،
ولا في هذه الشرفات المليئة بالدخان.
إن الألم الحقيقي،
الذي يجعل الأشياء يقظى على الدوام،
هو حرق صغير لا نهائي،
في الأعين البريئة للأنظمة الأخرى.

* * *

سترة مهجورة تثقل كثيرًا على الكتفين،
حتى إن السماء أحيانًا كثيرة،
تجمعها في قطعان قوية.
واللاتي يمتن في المخاض،
يعرفن عند الساعة الأخيرة،
أن كل همسة ستستحيل حجرًا،
وكل أثر قدم خفقة قلب.

ونحن نجهل أن لكل فكرة أرباضًا،
حيث الفيلسوف يلتهمه الصينيون واليسروعات،
وثمة أطفال بلهاء،
عثروا في المطابخ على عصفورات صغيرات،
اخترقتهن السهام،
كن يعرفن كيف ينطقن بكلمة الحب.

* * *

كلا، ليست هي الطيور.
ليس بطائر هو الذي يعرب عن حمى البركة الكدرة،
ولا عن الرغبة في القتل،
التي تثقل علينا كل لحظة،
ولا عن أزيز الانتحار المرنان،
الذي ينعشنا كل فجر.
إنها كبسولة من الهواء،
يؤلمنا فيها كل شيء في الدنيا،
إنها قطعة فراغ صغيرة حية،
على الإيقاع المجنون للضياء،
إنها صعود عصيٌّ على التحديد،
إلى حيث تنسى السحب والورود،
الصراخ الصيني الذي يصطخب على مرفأ الدماء.
لقد ضللت طريقي مرات عديدة،
بحثًا عن الحرق الذي يُبقي كل شيء يقظًا على الدوام،
ولكني لم أجد سوى بحارة ممددين على أرصفة الشطآن،
ومخلوقات سماوية صغيرة مدفونة تحت الثلج.
بيد أن الألم الحقيقي كان في ساحات أخرى،
حيث السمكات المتبلورات،
يحتضرن داخل جذوع الأشجار،

ساحات السماء،
الغريبة عن التماثيل القديمة السليمة،
وعن مودة البراكين الحنون.

* * *

ليس من ألم في الصوت.
لا توجد سوى الأسنان.
ولكنها أسنان خرساء،
قد عزلها القماش الأسود.
ليس من ألم في الصوت.
لا يوجد هنا سوى الأرض.
الأرض بأبوابها الأزلية،
التي تفضي إلى احمرار الثمار.

ميلاد المسيح

راعٍ يطلب حلمة عند الثلج،
الذي يماوج كلابًا بيضاء،
تقعي بين فوانيس صماء.
وبسط المسيح الصغير الفخاري أصابعه،
في حد حطام الخشبة الأبدي.

* * *

ها هي النملات والأقدام الخدرة آتية!
وخيطان من الدماء،
يشقان السماء الصلدة.
جوف الشيطان يرن عبر الوديان،
ويرجع صدى ضربات الأجساد اللدنة،
وجلجلاتها.
ذئاب وضفادع برية،
تغني في المواقد الخضراء،

التي تتوجها أكداس من نمل الفجر،
الذي يضطرم بالحياة،
والبغل يحلم بالمروحات العريضة،
والثور يحلم بالثور المثقوب وبالمياه.
الطفل يبكي ويحملق،
ورقم ثلاثة ينوِّس على جبهته.
والقديس يوسف،
يرى في ثنايا التبن،
ثلاث شوكات من البرونز،
ولفائف الطفل،
يفوح منها حفيف الصحراء،
وقياثير دونما أوتار وأصواتٌ ذبيحة.

* * *

ويدفع ثلج «مانهاتن» الإعلانات أمامه،
ويبين عن رقة صافية عند الأقواس الزائفة،
وقساوسة بلهاء وملائكة يغطيها الريش،
يسيرون وراء «لوثر» في الأركان القصية.

الفجر

الفجر في نيويورك،
تظلله أعمدة أربعة من الوحل،
وعاصفة من الحمائم السوداء،
يخضن في المياه العفنة.

الفجر في نيويورك،
ينتحب على طول السلالم الهائلة،
وينشد ناردين الأسى المرسوم،
فيما بين أشواك السنابل.

يأتي الفجر،
وما من أحد يستقبله في الأفواه،
فليس ثمة صباح ولا أمل باسم،
وأحيانًا،
تخترق أسراب مصطخبة من العملات النقدية،
الأطفال المهجورين وتلتهمهم التهامًا.

يعرف أوائل من يخرجون حتى النخاع،
أنه لن يكون ثمة فردوس ولا حب مكتمل.
يعرفون أنهم ذاهبون إلى وحل الأرقام واللوائح،
إلى الألعاب التي لا تعرف فنًّا،
وإلى الجهد الذي لا ينتج ثمرًا.

ويندفن النور في السلاسل والضجيج،
في التحدي المشين لعلم بلا جذور،
ويتطوح أناس مؤرقون في كل حي،
كأنهم خرجوا لتوهم من حطام الدماء.

الفصل الرابع

قصائد بحيرة

«عدن ميلز»

إلى إدواردو أوجارتي.

تضعيفة شعرية لبحيرة عدن

أغنامنا ترعى الكلأ، بينما الرياح تزفر أنفاسها.

جار ثيلاسو

كان صوتي العتيق،
غافلًا عن العصارات الكثيفة المريرة.
إنني أراه في خيالي يلعق أقدامي،
تحت أوراق السرخس الهشة المبتلة.

* * *

آه يا صوت حبي العتيق!
آه يا صوت حقيقتي،
آه يا صوت جنبي المفتوح،
حين انبجست كل الوردات من لساني،
ولم تشعر الحشائش بأسنان الجواد اللامبالية.
ها أنت هنا تنهل من دمائي،

تنهل من مزاح الطفل الذي كنته سابقًا،
بينما تتكسر عيناي في مهب الرياح،
على الألمونيوم وأصوات السكارى.

* * *

دعوني أمر من الباب،
حيث تأكل حواء النملات،

وآدم يخصب السمكات الباهرات.
دعوني أمر أيها الأقزام ذوو القرون،
إلى غابة الراحة والرقاد،
والقفزات ذات البهجة الخالصة.

* * *

إني أعرف الماهية السرية،
التي يمكن أن تكون لدبوس صدئ،
وأعرف أهوال عيون يواقظ،
على سطح الطبق المحدد.

* * *

غير أنني لا أريد دنيا ولا حلمًا أيها الصوت القدسي،
بل أريد حريتي،
أريد حبي الإنساني،
في أشد جوانب النسمة المهجورة ظلمة.
حبي الإنساني!

* * *

تلك الكلاب البحرية،
تلاحق بعضها البعض،
والريح يترصد جذوع أشجار غافلة.
آه أيها الصوت العتيق،
احرق بلسانك هذا الصوت،
المجبول من الصفيح ومن مسحوق التلك،

أريد أن أبكي كما يحلو لي،
كما يبكي الأطفال في الصف الأخير،
لأنني لست إنسانًا، ولا شاعرًا، ولا ورقة،
إن أنا إلا نبض جريح،
يحيط بأشياء الجانب الآخر.
أريد أن أبكي وأنا أهتف باسمي،
واسم كل زهرة وطفل وشجرة شربين على شاطئ هذه البحيرة،
كيما أنطق بحقيقتي كإنسان من دم،
وأختنق في نفسي الهزؤ وملابسات الكلم.
* * *
كلا، لا. أنا لا أسأل، وإنما أرغب،
يا صوتي الذي تحرر،
أن تلعق يديَّ.
وفي متاهة السواتر،
يستقبل جسدي العاري،
قمر العقوبة والساعة المغطاة بالرماد.
* * *
هكذا كنت أتكلم.
هكذا كنت أتكلم حين أوقف «زحل» القطارات،
وكان الضباب والحلم والموت يبحثون عني جميعًا.
كانوا يبحثون عني هناك،
وهناك،
حيث يطفو جسدي بين التوازنات المتناقضة.

سماء حية

لن يكون لي أن أشكو،
إذا فشلت في العثور على ما أنشد.
لن أرى صراع الشمس مع المخلوقات نتنة الجراح،
بالقرب من الأحجار الجدباء والحشرات الخاوية.
* * *

غير أنني سأذهب إلى المسارح الأولى،
مسارح الصدمات، والسوائل، والهمهمات،
التي تخترق أجسام الرضعاء،
وإلى حيث يعرضون عن كل سطح،
حتى أدرك أن هدفي سيبلغ مرماه من البهجة،
حين أطير ممتزجًا بالحب وبالرمال.
صقيع المُقَل المنطفئة لا يصل إلى هناك،
ولا خوار الشجرة التي تغتالها اليرقة.
كل الأشكال هناك، فيما بينها،
تتبع تعبيرًا واحدًا محتدمًا
عن التقدم إلى الأمام.

* * *

ليس بإمكانك أن تتقدم عبر أسراب النوَّار،
فالهواء يذيب أسنانك التي قُدَّت من سكَّر،
ولا تستطيع أن تهدهد ورقة السرخس المارقة،
دون أن تشعر بدهشة العاج النهائية.

* * *

هناك، تحت الجذور وفي لباب الهواء،
تتكشف حقيقة الأمور الخاطئة.
السباح النيكلي الذي يترصد أشد الموجات رقة،
وقطيع الأبقار الليلية ذات الأقدام الأنثوية الحمراء.

* * *

لن يكون لي أن أشكو،
إذا فشلت في العثور على ما أنشد،
غير أنني سأذهب إلى المسارح الأولى،
مسارح الرطوبة وخفقات القلوب،
حتى أدرك أن هدفي سيبلغ مرماه من البهجة،
حين أطير ممتزجًا بالحب وبالرمال.

* * *

أطير نضيرًا كعادتي فوق فُرُش خالية،
فوق جماعات من النسمات وقوارب جانحة إلى الشاطئ،
وأتعثر بوجل في الأبدية الجامدة الثابتة،
وفي الحب الذي لا يطلع لنهايته فجر.
الحب، الحب الذي يَبين!

عدن ميلز – فيرمونت، ٢٤ أغسطس ١٩٢٩

الفصل الخامس

في كوخ الفلاح

(ريف نيوبرج)

إلى كونشا مندث،
ومانويل ألتولاجيري.

الطفل «ستانتون»

– هل تحبني؟
– أجل.
– وأنت؟
– أجل. أجل.

* * *

حين أبقى وحيدًا،
تبقى معي سنواتك العشر لا تزال،
والجياد الثلاثة العمياء،
ووجوهك الخمسة عشر مع وجه المرجومة،
والحميات الصغيرة،
التي ترقد مثلوجة فوق أوراق الذرة.
أي ستانتون، يا ولدي، ستانتون.
في منتصف الليل،
خرج السرطان إلى الدهاليز،
وتحدث مع القواقع الخاوية،
عن الوثائق.

السرطان الذي تشيع فيه الحيوية،
مفعمًا بالسحائب وبالترمومترات،
بشوقه الطاهر، شوق التفاحات،
بأن تضرب فيها البلابل مناقيرها.
وفي المنزل حيث لا يوجد سرطان،
تنحطم الجدران البيضاء في هذيان الفلك.
وفي الإسطبلات الصغيرة،
وعند مقاطع الغابات،
يلتمع وهج الحروق سنوات عديدة.
كانت آلامي تدمى عند الأصائل،
حين كانت عيناك جدارين،
وحين كانت يداك بلدتين،
وجسدي همسة من همسات العشب.
كانت آلامي تبحث عن ردائها،
مغبرة، تنهشها الكلاب،
وذهبت معها دونما خوف،
إلى باب المياه العتماء.
آه يا ستانتوني، كم أنت أبله وجميل،
وسط الحيوانات الصغيرة،
يا من كسر حدادو الضيعات أضلاع أمه،
ورقد أخوه تحت الأقواس،
والتهمت النملات، أخاه الأصغر،
بينما السرطان يخفق وسط الحجرات،
دونما أسلاك شائكة!
هناك مرضعات يعطين الأطفال،
أنهارًا من الفطر ومرارة الأقدام،

يصعدن إلى الشقق،
ليوزعن جرعات الفئران السحرية.

فالناس في الحقيقة،
يرغبون في إلقاء الحمائم في البالوعات،
وأنا أعرف ماذا ينتظرون،
من يضغطون فجأة على عقلات أصابعنا في الطرقات.

* * *

إن غفلتك جبل من السباع يا ستانتون.
ذلك اليوم الذي أعطاك فيه السرطان علقة،
وبصق عليك في عنبر الرقاد،
حيث مات النزلاء في الوباء،
وفتح وردته المحطومة من الزجاج الجاف والأيدي الرخوة،
كيما ينثر الطين على حدقات الذين يبحرون،
ذلك اليوم،
بحثت أنت عن آلامي وسط العشب،
آلامي التي لها زهور من الرعب،
بينما السرطان المرير الأخرس،
الذي يريد أن ينام معك،
يسحق الأراضي الحمراء من فوق ملاءات المرارة،
ويضع فوق التوابيت،
شجيرات مثلوجة من حامض البوريك.
أي ستانتون.
اذهب إلى الغابة مع معازفك اليهودية،
اذهب لتتعلم هناك كلمات سماوية،
ترقد في جذوع الشجر، في السحب، في السلاحف،
في الكلاب النائمة، في الرصاص، في الرياح،
في الزنابق التي لا تنام،
في المياه التي لا تحاكي أحدًا،
كيما تتعلم يا ولدي ما ينساه شعبك دائمًا.

* * *

حين يبدأ ضجيج الحرب،
فسوف أترك قطعة جبن لكلبك في المكتب،

وستكون سنواتك العشر،
الأوراق التي تطير في حُلل الموتى،
عشر وردات من الكبريت الواهن،
على كتف فجري.
وأنا يا ستانتون،
أنا وحدي، في غمرة النسيان،
ووجوهك الذابلة فوق فمي،
سوف أخطر مخترقًا بصرخاتي،
تماثيل الملاريا الخضراء.

بقرة

إلى لويس لاكاسا.

تمددت البقرة الجريحة،
وتسلقت شجرات وجداول فوق قرونها،
وكان مخطمها ينزف دمًا في السماء.

* * *

مخطمها المغطى بالنحلات،
تحت شارب بطيء من الرضاب.
وأقامت صرخة بيضاء الصباح على قدميه.

* * *

البقرات الميتة والحية،
توَرُّدٌ من نور أو من عسل الحظائر،
تثغو وعيونها نصف مغلقة.

* * *

فلتعلم الجذور،
وذلك الصبي الذي يشحذ مطواته،
أن بوسعهم الآن أن يأكلوا البقرة.

* * *

وفي الأعالي
يشحب لون الأنوار والأوداج.
وأربعة أظلاف
ترتعد في الهواء.

* * *

فليعلم القمر،
وليل الصخور الصفراء ذاك،
أن ها قد رحلت بقرة الرماد.

* * *

إنها قد رحلت تثغو،
عبر ركام السماوات المتيبسة،
حيث يتغذى السكارى بالموت.

طفلة غارقة في البئر

(غرناطة ونيوبرج)

تعاني التماثيل آلامًا في عيونها،
مع ظلمة التوابيت،
ولكنها تعاني أكثر وأكثر،
من المياه التي لا تصب في البحر ...
التي لا تصب في البحر.

* * *

أهل البلدة يجرون وسط أسوار القلاع،
محطمين قصبات الصيادين.
سريعًا! إلى الحدود! بسرعة.
ونقت النجمات الحانيات.
... التي لا تصب في البحر.

* * *

هادئة في ذكراي،
كوكب، دائرة، هدف؛

تبكين على شطآن عين من عيون الجواد.
... التي لا تصب في البحر.

* * *

ولكن ليس من أحد في الظلمة،
يستطيع أن يمنحك مسافات،
بل حدودًا مرهفة،
مستقبل من الماسات.
... التي لا تصب في البحر.

* * *

وبينما الناس تبحث عن صمت الوسادة،
فأنت تنبضين على الدوام،
محددة في خاتمك.
... التي لا تصب في البحر.

* * *

ستكونين دومًا أمام بعض الموجات،
التي تقبل الجذور والوحدة المرتقبة.
... التي لا تصب في البحر.

* * *

ها هم يأتون مع الوديان والهضاب!
انهضي من المياه!
كل نقطة نور سوف تخلع عليك قيدًا!
... التي لا تصب في البحر.

* * *

ولكن البئر سوف تمد إليك،
أيادي صغيرة من الفطر،
يا جنية البحر،
يا من لا تخطر غفلتها الطاهرة على بال.
... التي لا تصب في البحر.

* * *

لا، التي لا تصب في البحر.
مياه ركدت في إحدى النواحي،

تتنفس بكل كماناتها التي تخلو من الأوتار،
في سلَّم الجراح الموسيقي،
والأبنية المهجورة.
... التي لا تصب في البحر.

الفصل السادس

فاتحة للموت

(قصائد الوحدة في «فيرمونت»)

إلى رفائيل سانشيز فنتورا.

موت

إلى إيسيدرو دي بلاس.

أي جهد!
أي جهد يبذله الحصان كي يصبح كلبًا!
أي جهد يبذله الكلب كي يصبح عصفورًا!
أي جهد يبذله العصفور كي يصبح نحلة!
أي جهد تبذله النحلة كي تصبح حصانًا!
والحصان،
أي سهم مسنون يعتصره من الوردة!
وأي وردة داكنة يخرجها من شفته!
والوردة،
أي قطيع من النور والصرخات الداوية،
تجمعها في حلاوة جذعها الحي!
والحلاوة،
أي خناجر صغيرة تحلم بها في يقظتها!
والخناجر الصغيرة،

أي قمر مطلق السراح،
أي عري، وأي جلد أزلي وتورد،

تسعى بحثًا عنهم!
وأنا، على حافة الأسطح،
أي ملائكة من نار أنشد،
وأنا منهم!
ولكن،
القوس الجصي ...
أي ضخامة، أي خفاء، أي استدقاق!
دونما جهد يبذل.

ليلية الفراغ

١

يا حبيبتي،
حين ترين أن كل شيء قد راح،
حين ترين الفراغات والأردية،
يجب أن تعطيني قفازك القمري،
قفازك الآخر المجبول من العشب.

* * *

يمكن للهواء أن يقتلع القواقع،
التي ماتت فوق رئة الفيل،
وأن ينفخ الديدان الخدرة،
من فوق النور الطالع أو التفاحات.
تضرب الوجوه جامدة القسمات بالمجداف،
تحت صرخات العشب الخافتة.
وفي الركن يقبع صدر الضفدعة الصغير،
وقد ران الكدر على فؤاده وماندولينه.

* * *

وفي الميدان الكبير المهجور،
كانت رأس الثور المقطوع حديثًا يخور،
وكانت الأشكال التي تبحث عن دورة الثعبان،
مجرد زجاج نهائي متصلب.

* * *

يا حبيبتي،
حين ترين أن كل شيء قد راح،
أعطيني دنياك الفارغة،
الحنين إلى الدراسة وإلى السماء الحزينة،
حين ترين أن كل شيء قد راح!

* * *

وفي داخليتك يا حبيبتي،
في جسدك،
أي صمت للقطارات المقلوبة!
وكم من أذرع للمومياء المزهرة!
وأي سماء لا منفذ لها!
يا حبيبتي،
أي سماء!

* * *

إنه الحجر في المياه والصوت في النسمة،
حدود الغرام الذي يفر من جذعه الدامي.
يكفي أن نلمس نبض حبنا الحاضر،
كيما تنبت الأزاهير على الأطفال الآخرين.
حين ترين أن كل شيء قد راح!
حتى ترين فراغات السحب والأنهار،
أعطيني يديك المكللتين بالغار يا حبيبتي،
حين ترين أن كل شيء قد راح!

* * *

تدور الفراغات الخالصة،
على صفحتي وعلى صفحتك وفي الفجر،

وتحافظ على آثار أفنان الدماء،
وبعض من جانبية الجص الهادئ،
الذي يرسم ألمًا فوريًّا،
للقمر المرتشق بالطعان.

* * *

انظري الصور المحددة التي تبحث عن فراغك،
كلاب ضالة وتفاحات مقضومة.
انظري شوق وشجن عالم حزين أثري،
لا يجد إيقاع نشيجه الأول.

* * *

حين أبحث عن همهمات الخيط في الفراش،
جئت أنت يا حبيبتي كي تغطي سطحي.
فراغ نملة يمكن أن يملأ الهواء،
ولكنك تروحين نائحة في عيني دونما اتجاه،

* * *

كلا، ليس في عيني،
لأنك الآن تُرينني أنهارًا أربعة،
مضمومة إلى ذراعك،
في الكوخ الجامد،
حيث القمر السجين يلتهم أحد البحارة أمام الأطفال.
حين ترين أن كل شيء قد راح،
يا حبيبتي المنيعة، يا حبيبتي الآبقة!
كلا، لا تعطيني فراغك،
لأن فراغي يضيع الآن في الهواء!
آه يا لوعتك، آه يا لوعتي،
لوعة النسمات!
حين ترين أن كل شيء قد راح.

٢

أنا
مع الفراغ الشديد البياض،
لأحد الجياد.
أعرافٌ من رماد.
ميدانٌ خالص مكنون.

* * *

أنا.
فراغي قد اخترمته الإبط المحطومة.
قشر جاف لعنبة محايدة،
ومعادن الفجر.

* * *

كل ضياء العالم يمكن أن تحتويه مقلة،
وإليك يغني،
ويعيش غناؤه أكثر من جناحيه.

* * *

أنا،
مع الفراغ الشديد البياض،
لأحد الجياد.
محاط بمتفرجين تمتلئ كلماتهم بالنملات.

* * *

في ساحة البرودة،
التي تخلو من الجانبية المبتورة،
عبر هامات العمدان المحطومة،
للوجنات الدامية.

* * *

أنا،
فراغي الذي يخلو منك أيتها المدينة،

من موتاك الذين يطعمون،
ممتطيًا ظهر الجواد،
عبر حياتي التي ألقت مرساها إلى الأبد.
* * *
أنا،
* * *
ليس هناك من قرن جديد،
ولا من نور حديث.
ليس هناك غير حصان أزرق وفجر.

منظر طبيعي لقبرين وكلب آشوري

انهض يا صديقي،
لتسمع عواء الكلب الآشوري.
يا ولدي،
إن حوريات السرطان الثلاثة،
أخذن يرقصن وأحضرن جبالًا،
من الشمع الأحمر،
وبعض الملاءات الخشنة،
إلى حيث كان السرطان ينام.
كان للحصان عين في رقبته،
وكان القمر في سماء غاية في البرودة،
حتى اضطر إلى أن يحطم تل الزهرة،
وأن يغرق المقابر العتيقة في الدماء والرماد.
* * *
استيقظ يا صديقي،
فالجبال لا تتنفس حتى الآن،
وأعشاب فؤادي ترقد في مكان آخر،
لا يهم أن مياه البحر تملأ جوفك.

لقد همت زمنًا طويلًا،
بطفل كانت له ريشة في لسانه،
وعشنا مائة عام داخل سكين.
استيقظ. واصمت. وأنصت.
تماسك قليلًا.
العواء لسان بنفسجي طويل،
يخلف نمالًا من الهلع ومن خمر الزنابق.
ها هو يقترب من الصخرة،
لا تمدد جذورك!
إنه يقترب. يئن.
لا تجهش بالبكاء في نومك يا صديقي.
انهض يا صديقي،
لتسمع عواء الكلب الآشوري.

طلل

إلى رخينو ساينث دي لاماثا.

دون أن يعثر على ذاته،
مسافرًا في ثنايا جذعه الأبيض،
هكذا يرحل الهواء.

* * *

وسريعًا،
ظهر أن القمر كان جمجمة حصان،
والهواء تفاحة عتماء.

* * *

ومن وراء النافذة،
كان يبين صراع الرمال مع المياه،
بالسياط والأضواء.

* * *

وشاهدت مجيء الأعشاب،
وألقيت إليها خروفًا يثغو،
تحت أسنانها الصغيرة ومشارطها.

* * *

وطارت أول حمامة،
في كساء من الريش والبلاستيك،
داخل قطرة واحدة.

* * *

والسحائب،
زرافات زرافات،
ظلت نائمة،
ترقب عراك الصخور مع الفجر.

* * *

ها هي الأعشاب تأتي يا ولدي،
ها هي سيوفها الرضابية تدوي،
على طول صفحة السماء الخالية.

* * *

امسك يدي، يا حبي.
الأعشاب!
وحلَّت الدماء إسار خصلاتها،
عبر زجاج البيت المحطوم.

* * *

ولم يبقَ أحد سواك وسواي.
فلتجهز هيكلك العظمى لمسرى الهواء.
لم يبقَ أحدٌ سواي وسواك.

* * *

فلتجهز هيكلك العظمي.
يجب أن تبحث سريعًا يا حبي،

سريعًا عن صورتنا الجانبية،
التي لا تعرف منامًا.

قمر وبانوراما الحشرات

(قصيدة حب)

القمر يضوي على البحر،
وعلى الستارة تئن الرياح،
وترفع موجات من لجين وزرقة،
في حركة لينة عطوف.

اسبرو نثيدا

لو أن كل قرية كان لها جنية بحرها،
لاتخذ قلبي شكل حذاء.
ولكن الليل لا تبين له نهاية،
حين يرتكز على المرضى،
وثمة سفائن تسعى إلى لفت الأنظار،
حتى تستطيع أن تغرق في سلام.
لو أن الهواء يهب في لين،
فإن قلبي يتخذ شكل طفلة.
ولو رفض الهواء أن يخرج من أعواد البوص،
فسيتخذ قلبي شكل روث الثور ذي الألف عام.

* * *

جدِّف، جدِّف، جدِّف، جدِّف،
نحو كتيبة الأطراف غير المتساوية،
نحو منطقة الترصدات المتفتتة،
ليل الثلوج المتماثل، ليل النظم المهجورة.
والقمر،

القمر!
ولكن لا، ليس القمر.
إنه ثعلب الحانات،
الديك الياباني الذي التهم عينيه،
والأعشاب الممضوغة.

* * *

لن ينقذنا الدود المعروض في الزجاجات،
ولا العطارون،
حيث الماورائي،
يلاقي سفوح السماء الأخرى.
ما الأشكال إلا أكاذيب،
وليس هناك إلا دائرة أفواه الأوكسوجين.
والقمر.
ولكن لا، ليس القمر.
إنها الحشرات،
الدقاق، الميتة على الشطآن،
ألم متطاول.
ذرة من يود،
جمهرة على رأس الدبوس،
والعري الذي يعجن دماء الجميع.
وحبي الذي ليس حصانًا ولا حرقًا،
بل كائنًا مأكول الصدر.
حبي!

* * *

ها هم يغنون، يصرخون، يئنون.
وجه. وجهك! وجه.
التفاحات واحدة والداليات متشابهات،
والنور له مذاق المعدن المهترئ؛
والحقل الذي يتلألأ بهاءً،

ستكفيه وجنة قطعة نقدية مكانًا.
ولكن وجهك يغطي مأدبة السماوات.
ها هم يغنون، يصرخون، يئنون.
غطوا! تسلقوا! انثروا الرعب!

* * *

لا بد من مواصلة السير، بسرعة!
عبر الموجات، عبر الأفنان،
عبر دروب القرون الوسطى المهجورة،
التي تنحدر صوب النهر،
عبر محلات الجلود،
حيث يرن قرن بقرة جريحة،
عبر السلالم، دونما خوف، عبر السلالم.
ثمة رجل شاحب اللون يستحم في البحر؛
كان رقيقًا،
حتى أن أنوار الكشافات اللاهية،
التهمت فؤاده.
أيتها الحشرات!
في «بيرو» تعيش ألف امرأة،
تنسجن ليليات واستعراضات،
فيما بين شرايينهن.

* * *

ويوقفني قفازٌ مستدقٌّ قارضٌ،
كفى!
لقد أحسست في منديلي،
حفيف الشريان الأول يتمزق.
انتبه إلى قدميك يا حبي، يديك!
إذ إنني مضطر إلى تسليم وجهي،
وجهي، وجهي!
آه، وجهي المتآكل.

* * *

تلك النيران التي تطهر رغباتي،
ذلك الاضطراب سعيًا وراء الاتزان،
ذلك الألم المسحوق البريء في عينيَّ،
سوف يخفف من أشجان فؤاد آخر،
التهمته السحائب.

* * *

لن ينقذنا أهل محلات الأحذية،
ولا المناظر الطبيعية التي تتحول إلى موسيقى،
عندما تعثر على المفاتيح الصدئة.
ما الهواءات إلا أكذوبة.
لا يوجد سوى مهد صغير في غرفة المهملات،
يتذكر كل ما حدث.
والقمر،
ولكن لا، ليس القمر.
إنها الحشرات،
الحشرات وحدها،
مطقطقة.
قارضة، راجفة، محتشدة.
والقمر،
يجلس على باب حطامه بقفاز من الدخان،
القمر!

نيويورك ٤ يناير ١٩٣٠م

الفصل السابع

العودة إلى المدينة

إلى أنطونيو إرناندث صوريانو.

نيويورك، مكتب واتهام

إلى فرناندو بيلا.

فيما تحت عمليات الضرب،
ثمة قطرة من دماء البط.
وفيما تحت عمليات القسمة،
ثمة قطرة من دماء بحَّار.
وتحت عمليات الجمع،
نهر من الدماء الحانية؛
نهر يأتي منشدًا،
عبر غرف النوم في الضواحي،
وهو يتبدى فضة، واسمنتًا، أو نسمة،
في فجر نيويورك الزائف.
توجد أيضًا الجبال، أعرف ذلك.
والمناظير المكبرة أعرف ذلك.
ولكني لم أحضر كيما أرى السماء.
إنما أتيت لأرى الدماء الفائرة،
الدماء التي تحمل الماكينات إلى الشلالات،
والروح إلى لسان الحية.

يذبحون في نيويورك كل يوم،
أربعة ملايين بطة،
وخمسة ملايين خنزير،
وألفي حمامة،
لإشباع نهم المحتضرين.
ومليون بقرة،
ومليون خروف،
ومليوني ديك،
تخلف وراءها السماوات شذرات محطومة.
أفضل لنا أن نبكى ونحن نشحذ النصال،
أو أن نغتال الكلاب،
في رحلات الصيد المحمومة،
عن أن نقاوم عند الفجر،
قطارات اللبن التي ليس لها نهاية،
قطارات الدم التي ليس لها نهاية،
وقطارات الورود،
التي غل أياديها تجار العطور.
والبط والحمام،
والخنازير والخراف،
يوارون قطرات دمائهم،
تحت عمليات الضرب.
وصراخ البقرات المعصورة الهائل،
يملأ الوادي بالآلام،
حيث يثمل نهر الهدسون بشرب الزيت.
إنني أتهم كل الناس التي تجهل النصف الآخر،
النصف الذي ليس هناك من يفتديه،
والذي يرفع جبالًا من الأسمنت،
حيث تنبض قلوب الحيوانات الصغيرة المنسية،
وحيث نسقط جميعًا،
في حفل المثقاب الأخير.
إنني أبصق على وجوهكم.
ويصغي لي النصف الآخر،
ملتهمًا، بائلًا محلقًا في صفائه،

مثل أطفال بوابي المنازل،
الذين يرفعون عصيًا هشة،
في وجه الفجوات،
حيث تصدأ قرون استشعار الحشرات.
ليس هو الجحيم، إنما هو الطريق.
ليس هو الموت، إنما هو محل الفاكهة.
ثمة عالم من أنهار محطومة،
وآماد لا تُقطع،
في ساق هذه القطة الصغيرة،
التي كسرتها السيارة؛
وأنا أسمع أغنية الدودة،
في فؤاد الكثير من الفتيات.
صدأ، تخمر، أرض ترتجف.
أرض. أنت ذاتك،
يا من تسبح في غمار أرقام المكتب.
وماذا يمكنني أنا أن أفعل؟
هل أشيع النظام في المناظر الطبيعية؟
هل أشيع النظام في الحب،
الذي يستحيل بعد ذلك صورًا فوتوغرافية.
الذي يستحيل بعد ذلك شذرات من خشب.
وملء الفم من الدم؟
القديس إغناثيو دي لويولا،
اغتال أرنبًا صغيرًا،
وما زالت شفتاه تئنا،
عبر أبراج الكنائس.
كلا. كلا. كلا. كلا.
إني أتهم.
إني أتهم تآمر تلك المكاتب المهجورة،
التي تفصح عن الآلام،
التي تمحو برامج الغابة،
وأقدم نفسي،
قربانًا لأفواه البقرات المعصورة،

حين تملأ صرخاتها الوادي،
حيث يثمل نهر الهدسون بشرب الزيت.



وول ستريت في العشرينيات.

مقبرة يهودية

هربت الحمى،
في بهجة طاغية،
إلى حبال السفن الراسية؛
ود فع اليهودي السور الحديدي،

بذلك الخفر المثلوج،
الذي يغمر قلب أعواد الخس.

* * *

كان أطفال المسيح ينامون،
وكانت المياه حمامة،
وكانت الخشبة «مالك الحزين»
وكان الرصاص عصفورًا،
بل وكانت سجون النار الحية،
تتعزى بقفزات الإستاكوزا،

* * *

كان أطفال المسيح يضربون بالمجداف،
وكان اليهود يملئون الجدران،
بقلب حمامة وحيد،
يبغون جميعًا الفرار عن طريقه.
كانت طفلات المسيح تغنين،
واليهوديات ينظرن الموت،
بعين ديك بري واحدة،
أحالتها زجاجًا،
أشجان مليون منظر طبيعي.

* * *

يغمس الأطباء مقصاتهم وقفازاتهم المطاطية،
في النيكل،
حين تشعر الجثث،
بالضياء المهول لقمر آخر موسد الثرى،
يتسلل إلى أقدامها.
وتقترب آلام صغيرة سالمة،
من المستشفيات،
ويمضي الموتى يخلعون سترات من الدماء كل يوم.

* * *

عمائر الصقيع،
القياثير والأنين الذي يفلت من أوراق الشجر المستدقة،

في الخريف.
ويبلل المنحدرات الأخيرة،
كانت تنطفئ في سواد القبعات العالية.
* * *
العشب السماوي الوجداني،
الذي يمر من الندى خائفًا وجلًا،
والمداخل البيضاء المرمرية،
التي تفضي إلى الهواء الثقيل،
كانت تعرض صمتها،
الذي حطمته آثار الأحذية النائمة.
* * *
دفع اليهودي السور الحديدي؛
ولكن اليهودي لم يكن مرفأ.
وتدافعت سفائن ثلجية،
عبر سلالم قلبه الصغيرة،
السفائن الثلجية،
التي تترصد رجل المياه الذي يغرقها؛
سفائن المقابر،
التي تترك أحيانًا زائريها عميانًا.
* * *
كان أطفال المسيح ينامون،
واحتل اليهودي فراشهم.
كان ثلاثة آلاف يهودي،
يبكون في الدهاليز المرعبة،
لأنهم جمعوا فيما بينهم،
بمشقة
نصف حمامة.
لأن أحدهم كان عنده عجلة ساعة.
وآخر حذاء رقبة له شرنقة تعرف الكلام،

وآخر أمطارًا ليلية مثقلة بالسلاسل،
وآخر ظفر بلبل كان ما يزال حيًّا،
ولأن نصف الحمامة كان يئن.
وينثر دماءً لم تكن دماءه.
كانت الحمى ذات البهجة الطاغية،
ترقص عبر القباب المترطبة،
بينما كان القمر يسطِّر في مرمره،
أسماء عتيقة وأشرطة بالية.
ووصل الناس الذين يطعمون،
فيما وراء الأعمدة اليابسة.
والحمير ذات الأسنان البيضاء،
يصحبها أخصائيو المنطق الفصيح.
كان عبَّاد الشمس الأخضر يرجف،
عبر فيافي الشفق.
وانطلقت المقبرة كلها،
تشكو بأفواه كرتونية وخرقات جافة.
كان أطفال المسيح قد ناموا،
حين قطع اليهودي يديه في صمت،
مغلقًا عينيه،
عند سماع أول الأنين.

نيويورك، ١٨ يناير ١٩٣٠م

الفصل الثامن

أنشودتان

إلى ناشري: أرماندو جيبرت.



مبنى كرايزلر عام ١٩٢٩م.

صرخة إلى روما

(من فوق مبنى كرايزلر)

تفاحاتٌ ذات جراح سطحية،
من سيوف زينة دقيقة فضية.
سحبٌ خمشتها يد مرجانية،
تحمل على ظهرها لوزة من النيران.
سمكاتٌ زئبقية كأنها أسماك القرش:
أسماك قرش كأنها قطرات لعويل،
تسمل عيون الجمهور.
ورود تجرح،
وإبر مثبتة في قصبات الدماء.
عوالم بعضها لبعض عدو،
وحبٌ تغطيه الديدان،
ستسقط عليك.
ستسقط على القبة العظيمة،
التي تمسح الألسنة الحربية بالزيت،
حيث يبول رجل فوق حمامة بارقة،
ويبصق فحمًا مهروسًا،
يحوط به آلاف الأجراس الصغيرة.

* * *

لأنه لا يوجد الآن من يوزع الخبز والنبيذ،
ولا من يزرع العشب في أفواه الموتى،
ولا من يبسط أقمشة الراحة،
ولا من يبكي على الأفيال الجريحة.
لا يوجد سوى مليون حداد،
يصوغون الأغلال،
لمن سيولد غدًا من أطفال.
لا يوجد سوى مليون نجار،

يصنعون توابيت،
خالية من الصلبان.
لا يوجد سوى جمهرة من أناس ينوحون،
ويشقُّون ملابسهم في انتظار الرصاص.
كان على الرجل الذي يحتقر الحمامة أن يتكلم،
وأن يصرخ عاليًا وسط الأعمدة،
وأن يحقن نفسه كيما يصاب بالجذام،
وأن يبكي بنواح مخيف،
يذيب من هوله خواتمه وتليفوناته الماسية.
ولكن الرجل الذي يتشح بالملابس البيضاء،
يتجاهل سر السنبلة،
يتجاهل أنين اللائي يلدن،
يتجاهل أن المسيح ما يزال قادرًا على منح المياه،
يتجاهل أن قطعة النقود تحرق قبلة الأعجوبة،
وتخلع دماء الخروف،
على منقار الديك البري الأبله.

* * *

ويُنبه المدرسون الأطفال،
إلى نور عجيب يأتي من عند الجبل؛
ولكن ما يصل إليهم،
هو حشد من البالوعات،
حيث جنيات الغضب السمراوات يصرخن.
ويشير المدرسون في خشوع،
إلى القباب الضخمة،
التي يحترق فيها البخور.
ولكن ليس هناك من حب تحت التماثيل،
ليس هناك من حب تحت العيون الزجاجية النهائية؛
إنما الحب في الأجساد التي حطمها العطش،

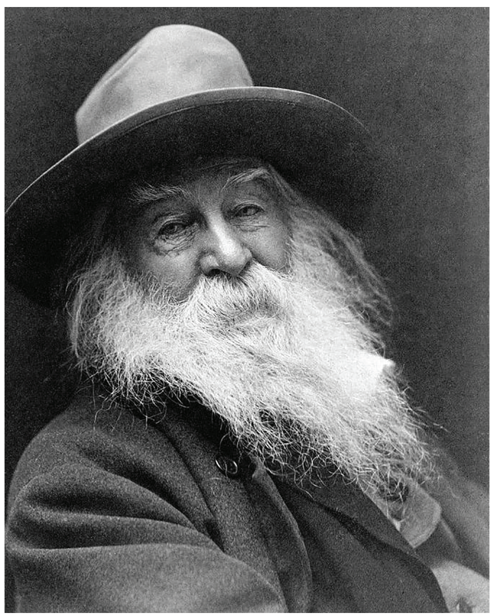
في الكوخ الصغير الذي يكافح الفيضان.
الحب في قاع الأرض،
حيث تتصارع أفاعي الجوع،
في البحر الحزين،
الذي يهز جثث طيور النورس،
وفي القبلة المدلهمة المسنونة تحت الوسائد،
ولكن الشيخ ذا اليدين الشفافتين،
سيهتف: الحب، الحب، الحب.
فيصفق له ملايين المحتضرين؛
سيهتف: الحب، الحب، الحب.
وسط النسيج الذي يرجف من الحنان؛
سيهتف: السلام، السلام، السلام،
وسط رعشات السكاكين وشعور الديناميت الطويلة،
سيهتف: الحب، الحب، الحب.
إلى أن تتحول شفتاه إلى فضة.

* * *

وفي تلك الأثناء، وفى تلك الأثناء، أواه!
في تلك الأثناء،
يجب على الزنوج الذين يرفعون المباصق،
والفتية الذين يرتجفون تحت خوف المديرين الشاحب،
والنسوة الغارقات في الزيوت المعدنية،
جمهور المطارق أو الفيولين أو السحب،
يجب أن يصرخوا،
حتى ولو حطموا أدمغتهم على الجدران،
يجب أن يصرخوا أمام القباب،
يجب أن يصرخوا في جنون من النيران،
يحب أن يصرخوا في جنون من الثلوج،
يجب أن يصرخوا ورءوسهم مليئة بالروث،
يجب أن يصرخوا كأنهم الليالي مجتمعة،

يحب أن يصرخوا بصوت يمزق القلوب،
إلى أن ترجف المدائن كأنما هي طفلات،
وتحطم سجون الزيت والموسيقى،
لأننا نريد خبزنا كفاف يومنا،
زهرة الحور والحنان الأبدي المتفتح.
لأننا نريد أن تتحقق إرادة الأرض،
التي تهب ثمارها للجميع.

أنشودة إلى وولت ويتمان



وولت ويتمان، شاعر الشعب الأمريكي، (١٨١٩-١٨٩٢م)

على طول نهري إيست وبرونكس،
يغني الفتية ويصدحون.
وقد استبانت خصورهم عارية،

مع العجلات، والزيوت، والجلود، والمطارق.
وتسعون ألفًا من عمال المناجم،
يستخلصون الفضة من بين الصخور.
والأطفال يرسمون سلالم ومنظورات.

* * *

ولكن …
لا أحد ينام.
لا أحد يريد أ ن يصبح نهرًا،
لا أحد يهيم بأوراق الشجر العريضة.
لا أحد يلقي بالًا إلى لسان الشاطئ الأزرق.

* * *

على طول نهري إيست وكوينزبورو،
يتصارع الفتية مع الصناعة،
واليهود …
يبيعون زهرة الختان لإله النهر.
وتصب السماء من بين الجسور والأسطح،
قطعانًا من الثيران،
تسوقها الرياح إلى الأمام.

* * *

ولكن …
لا أحد يتوقف،
لا أحد يريد أن يصبح سحابة.
لا أحد يبحث عن نباتات السرخس،
ولا طوق المزمار الأصفر.

* * *

عند مطلع القمر،
تدور البكرات وتعكر صفو السماء،
وحدود من الإبر،
تحاصر الذكرى،
وتحمل توابيت من لا يعملون.

* * *

آه يا نيويورك الأوحال،
آه يا نيويورك الأسلاك والموت،
أي ملائكة تخبئين بين ثنايا خديك؟
أي صوت كامل ينطق بحقائق القمح؟
وبالحلم المرعب لشقائق نعمائك الملطخة؟

* * *

ولا لحظة واحدة يا وولت ويتمان،
أيها الجميل الهرم،
غابت عن عيني لحيتك المليئة بالفراشات،
ولا كتفيك المخمليين اللذين أضناهما القمر،
ولا فخذيك الأبوليين العذراوين،
ولا صوتك الشبيه بعمود من الرماد،
أيها الهرم الجميل الضبابي.
إنك تئن،
كالطائر الذي نفذت الإبر في أعضائه؛
يا عدو المجون،
يا عدو الكرمات.
يا حبيب الأجساد الملتفة بالثياب الخشنة.

* * *

ولا لحظة واحدة،
يا ذا الجمال الرجولي،
يا من تحلم.
وسط جبال الفحم والإعلانات والسكك الحديدية.
بأن تصبح نهراً،
وأن تنام كالنهر،
مع ذياك الرفيق،
الذي يضع في صدرك،
شيئًا من آلام الفهد الجهول.

* * *

ولا لحظة واحدة يا آدم الدماء،
أيها الرجل،
أيها الإنسان المتفرد في البحار،
يا وولت ويتمان الهرم الجميل؛
لأن المخنثين يومئون إليك يا وولت ويتمان،
في الأسطح،
مجتمعين في زحمة البارات.
خارجين في عناقيد من البالوعات،
راجفين بين سيقان السائقين.
أو دوارين على المسارح الندية بالأبسنت.

* * *

هذا أيضًا! أيضًا!
ويتدفقون على لحيتك الطاهرة الوضاءة.
شقر الشمال، وزنوج الرمال،
جماهير تصيح وتشيح،
كالقطط أو كالثعابين،
والمخنثون يا وولت ويتمان،
المخنثون،
تكدرهم الدمعات،
أجساد خلقت لسياط المروضين وأحذيتهم وأسنانهم.

* * *

هذا أيضًا! أيضًا!
أصابع ملطخة،
تشير إلى شاطئ أحلامك،
بينما الصديق يأكل تفاحتك،
التي لها مذاق البنزين.
والشمس تغني من حول سرات الشباب،
وهم يلهون تحت الجسور.

* * *

ولكنك لم تكن تبحث عن العيون المخموشة،
ولا المستنقع المدلهم الذي يغمرون فيه الأطفال،
ولا الرضاب المثلوج،
ولا الجراح المقعية،
مثل بطون الضفادع البرية،
مما يحمل المخنثون في العربات والتراسات،
بينما القمر يسوطهم من حول جنبات الخوف،
* * *
كنت تنشد عريًا كالنهر،
ثورًا، وحلمًا يربط بين العجلة والطحالب.
أب آلامك، زهرة موتك.
ويئن وسط شعلات خط استوائك الخفي.
* * *
لأنه من العدل ألا يبحث الإنسان عن ملذاته،
وسط أحراش دماء صباح الغد،
فللسماء شطآن تحيد عنها الحياة،
وهناك أجسام يجب ألا تتكرر مع الفجر.
* * *
ألم، ألم، حلم، غليان وحلم.
هكذا الدنيا يا صديقي، ألم، ألم.
تتحلل أجساد الموتى تحت ساعات المدائن،
وتطوف الحرب تنتحب مع ملايين الفئران الشهباء.
والأثرياء يهدون إلى حبيباتهم،
أمواتًا صغارًا منيرين،
والحياة لا هي سامية ولا طيبة ولا قدسية.
* * *
باستطاعة الإنسان أن يقود رغباته لو أراد،
في طريق عري مرجاني أو سماوي،
وستتحول عواطف الحب في الغداة إلى صخور،
ويصبح الزمن نسمة تزحف ناعسة وسط الأفنان.

* * *

لهذا لا أرفع صوتي يا وولت ويتمان الهرم،
ضد الفتى الصغير الذي يسطُر اسم فتاة على وسادته،
ولا ضد الشاب الذي يلبس ثوب العروس،
في ظلمات صوان الملابس.
ولا ضد الإنسان المنفرد في المنتديات،
الذي يشرب مياه العهر في غثيان.
ولا ضد الرجال ذوي النظرات الخضراء،
الذين يحبون الإنسان،
ويحرقون شفاههم في صمت.

* * *

ولكني أرفعه ضدكم أنتم،
يا مخنثي المدائن،
بلحمكم المنتفخ وأذهانكم النجسة،
يا أمهات الوحل،
أيتها المسوخ الأسطورية،
أيها الأعداء الساهرون،
للحب الذي ينثر أكاليل الفرحة.

* * *

ضدكم على الدوام،
أنتم يا من تعطون الفتيان،
قطرات من الموت القذر مع السم المرير.
ضدكم على الدوام،
يا من تدعون عصافير الجنة في أمريكا الشمالية،
والطيور في هافانا،
وخوتوس في المكسيك،
وساراساس في قادش،
وآبيوس في إشبيلية،
وكانكوس في مدريد،
وفلوراس في أليقانت،
وأديلايداس في البرتغال.

* * *

يا مخنثي العالم كله،
يا قاتلي الحمائم،
يا عبيد النساء يا كلاب مخادعهن،
منفتحين في الميادين،
تصطخب فيكم حمى المروحة،
أو كامنين في مسارح الشوكران المتيبسة.

* * *

لن يكون هناك من ملجأ!
ينبجس الموت من عيونكم،
ويكوم زهورًا قاتمة،
على شطآن القاذورات.
لن يكون هناك من ملجأ! انتباه!
فليغلق عليكم الحائرون، والطاهرون،
والكلاسيون؛ والمختارون، والمتضرعون.
أبواب التهتك والفجور.

* * *

وأنت. يا وولت ويتمان،
نم على ضفاف نهر الهدسون،
بلحيتك ترنو إلى القطب ويديك المفتوحتين.
من صلصال طري أو من الثلج،
لسانك يدعو الرفاق،
للسهر على غزالك الذي لا جسم له،

* * *

نم، فلا شيء يبقى.
رقصة الجدران،
تشيع الهزة في المروج.
وأمريكا تغرق نفسها،
في الآلات والنحيب.
أريد من هواء أعماق الليل القوى،

أن يزيل زهورًا وكلمات،
من على القوس الذي تضطجع عليه.
وأن يعلن صبي أسود،
للبيض. العطشى إلى الذهب.
عن وصول مملكة السنبلة.

الفصل التاسع

الفرار من نيويورك

(فالسان نحو الحضارة)

فالس صغير من فيينا

هناك عشر فتيات في فيينا،
كتف يجهش الموت عليه بالبكا،
وغابة من الحمائم المحنطة.
هناك شذرة من الصباح،
في متحف الصقيع.
وهاك قاعة لها ألف نافذة.

* * *

آه، آه. آه. آه،
فلتأخذي هذا الفالس مغلقة الشفاه.

* * *

هذا الفالس. هذا الفالس. هذا الفالس،
من ذاته.
من الموت ومن الكونياك،
يبلل ذيله في مياه البحر.

* * *

أحبك. أحبك. أحبك،
مع المقعد الوثير والكتاب الميت،

في الممر الكئيب،
في أعلى البيت المظلم ذي الزنبقة،
في فراشنا القمري،
وفي الرقصة التي تحلم بها السلحفاة.

* * *

آه، آه، آه، آه،
فلتأخذي هذا الفالس ذا الخصر المحطوم.

* * *

هناك أربع مرايا في فيينا،
حيث يلعب فمك مع الأصداء،
هناك موت للبيانو،
الذي يطلي الفتية بالزرقة.
هناك شحاذون على الأسطح.
هناك أكاليل ناضرة من النواح.

* * *

آه، آه، آه، آه،
فلتأخذي هذا الفالس الذي يموت بين ذراعيَّ.

* * *

لأنني أحبك، أحبك، يا حبيبتي،
في أعلى البيت حيث يلعب الأطفال،
ويحلمون بأنوار هنغاريا العتيقة،
عبر نسمات الأصيل الدفيئة،
ويرون أغنامًا وزنابق الثلوج،
عبر صمت جبينك القاتم.

* * *

آه، آه، آه، آه،
فلتأخذي هذا الفالس المسمى «أحبك على الدوام».

* * *

سوف أرقص معك في فيينا،
في حلةٍ تنكرية لها رأس نهر.
انظري،
كم تغطي السنابل البرية ضفافي!
سوف أترك فمي بين ساقيك،
وروحي بين الصور الفوتوغرافية والسوسنات.
وفى موجات خطواتك القاتمة،
أريد يا حبيبتي، يا حبيبتي،
أن أترك لك أشرطة الفالس،
الفيولين والجدث.

فالس من الأغصان

هوت ورقة،
واثنتان.
وثلاث.
وثمة سمكة تسبح في القمر،

* * *

تنام المياه ساعة،
وينام البحر الأبيض مئة.
والسيدة،
كانت ميتة بين الأغصان.
والقسيسة،
كانت تغني داخل شجرة الأترج.
والفتاة،
تذهب عبر شجرة الأرز إلى شجرة الأناناس.
وشجرة الأرز،
كانت تبحث عن ريشة الصداح.
ولكن البلبل،

كان يبكي جراحه في الأنحاء،
وأنا أيضًا،
لأن ورقة هوت:
واثنتان،
وثلاث،
ورأس من البلُّور،
وفيولين من الورق.
والثلج،
يستطيع أن يشق طريقه في الدنيا،
إذا ما نام الثلج شهرًا،
وتصارعت الأغصان مع الدنيا،
واحدًا واحدًا،
ومثنى مثنى،
وثلاثًا ثلاثًا،
آه يا عاج الأجسام الخفية الصلد!
آه أيها الجرف الهاري الذي لا يعرف نملات الفجر!
مع حفيف الأغصان،
مع آهات السيدات،
مع نقيق الضفدعات،
ومع قرقرة العسل الصفراء،
سيصل جسد من الظلال،
متوج بأكاليل الغار.
ستكون السماء،
جامدة كالجدار أمام الرياح،
والأغصان المقتلعة،
سوف ترقص معها،
واحدًا واحدًا،
من حول القمر.
ومثنى مثنى،

من حول الشمس.
وثلاثًا ثلاثًا،
حتى ينام العاج نومًا هنيئًا،

الفصل العاشر

الشاعر يصل إلى هافانا

إلى دون فرناندو أورتيث.

لحن السود في كوبا

حالما يطلع البدر،
سأذهب إلى سنتياجو دي كوبا.
سأذهب إلى سنتياجو.
في عربة من المياه السوداء،
سأذهب إلى سنتياجو.
وسوف يغني النخيل من فوق الأسطح،
سأذهب إلى سنتياجو.
عندما تريد النخلة أن تصبح لقلقًا،
سأذهب إلى سنتياجو،
وعندما تريد شجرة الموز أن تصبح قنديل بحر،
سأذهب إلى سنتياجو،
مع رأس «فونسكا» الشقراء،
سأذهب إلى سنتياجو.
ومع ورود روميو وجولييت،

سأذهب إلى سنتياجو.
آه يا كوبا، آه يا إيقاع البذور الجافة!

سأذهب إلى سنتياجو،
آه أيها الزنار الحار ويا قطرة الأخشاب!
سأذهب إلى سنتياجو.
أيها المعزف المجبول من الأشجار الحية،
أيها التمساح. يا زهرة التبغ!
سأذهب إلى سنتياجو،
لقد قلت دومًا إنني سأذهب إلى سنتياجو.
في عربة من المياه السوداء،
سأذهب إلى سنتياجو،
النسمة والكحول يصاحبان مركبتي،
سأذهب إلى سنتياجو،
ومرجاني وسط العتمة،
سأذهب إلى سنتياجو.
البحر الغارق في الرمال،
سأذهب إلى سنتياجو.
حرارة بيضاء، فاكهة ميتة،
سأذهب إلى سنتياجو.
آه لنضارة أعواد قصب السكر الثيرانية!
آه يا كوبا!
آه يا منحدر النهدة والطين!
سأذهب إلى سنتياجو.

هافانا، أبريل ١٩٣٠م

قصيدة صغيرة مطلقة

إلى لويس كاردوثا إي أراغون.

أن تضل الطريق،
هو أن تصل إلى الثلوج،

والوصول إلى الثلوج،
هو عشرون قرنًا من رعي الكلأ في المقابر.

* * *

أن تضل الطريق،
هو أن تصل إلى المرأة،
المرأة التي لا تخشى الضوء،
المرأة التي تقتل ديكين في ثانية واحدة،
الضوء الذي لا يخشى الديكة،
والديكة التي لا تعرف الغناء فوق الثلوج،

* * *

ولكن ...
لو ضلت الثلوج طريقها إلى القلب،
فقد تأتي الرياح الجنوبية،
ولما كان الهواء لا يعبأ بالأَنَّات،
يكون علينا مرة أخرى أن نرعى الكلأ في المقابر،

* * *

رأيت سنبلتين حزينتين من الشمع،
تدفنان براكين منظر طبيعي.
رأيت طفلين معتوهين يبكيان،
إذ يفقآن عيني أحد القتلة،

* * *

ولكن «اثنان» لم يكن رقمًا أبدًا،
لأنه الأسى وظله،
لأنه القيثارة التي يفقد الحب آماله عندها،
لأنه برهان على مطلق آخر لا شأن له به؛
وهو حصن الميت،
وعقاب البعث الجديد،
الذي ليس له من نهاية،

الموتى يكرهون رقم اثنين،
ولكن رقم اثنين يهدهد المرأة للنوم.
ولما كانت المرأة تخشى الضوء،
والضوء يرتجف أمام الديكة،
والديكة وحدها تعرف كيف تطير فوق الثلوج،
فلا بد لنا أن نرعى الكلأ في المقابر،
دونما انقطاع.

نيويورك ١٠ يناير ١٩٣٠م

وأخيرًا استطاع القمر أن يتوقف

وأخيرًا استطاع القمر أن يتوقف،
عند منحدر الجياد المتوهج البياض.
شعاع من الضوء البنفسجي.
كان هاربًا من الجراح.
عرض على صفحة السماء،
لحظة ختان طفل ميت.

* * *

كان الدم يهبط الجبل،
والملائكة تبحث عنه؛
بيد أن الكئوس إنما كانت رياحًا،
ولم تملأ آخر الأمر سوى الأحذية.
كانت الكلاب العرجاء تدخن الغليون،
وثمة رائحة جلد يحترق،
تصبغ الشفاه المستديرة،
لمن يقيئون في الأركان،
بلون الرماد.
وكانت تُسمع صرخات متطاولة،
من جنوب الليل الجاف؛

وسببها أن القمر يحرق بشمعاته،
ذكران الجياد.
وكان الحائك المتخصص في الأردية الأرجوانية،
قد سجن ثلاث نسوة صالحات،
ويعرض عليهن جمجمة،
من خلال زجاج النافذة؛
وكان ثلاثتهن،
يحطن في الضاحية بجمل أبيض،
يبكي لأن الفجر وجب عليه أن يمر عبثًا من ثقب إبرة.
آه أيها الصليب!
آه أيتها المسامير!
آه أيتها الشوكة!
آه لتلك الشوكة التي انغرست في العظام،
إلى أن غطى الصدأ الكواكب السيارة!
ولما لم يكن هناك من يلتفت إلى الوراء،
فقد استطاعت السماء أن تتعرى.
عندئذ صلصل الصوت العظيم،
وصاح الفريسيون:
تلك البقرة الملعونة ضروعها مترعة باللبن.
كان الجمهور يسد الأبواب،
ويمشي المطر في الطرقات،
عازمًا أن يصيب القلب بالبلل،
بينما تعكر صفو الأصيل،
بالنبضات وبالحطابين،
وكانت المدينة المظلمة تحتضر،
تحت مطارق النجارين.

* * *

تلك البقرة الملعونة،
ضروعها مترعة برصاص الخردق،

كما قال الفريسيون الزرق.
ولكن الدماء خضبت أقدامهم،
وفجرت الأرواح النجسة،
كبسولات من بحيرات،
فوق جدران المعبد،
ها قد عرفنا بالتحديد،
اللحظة التي ستنجو فيها حياتنا،
لأن القمر قد غسل بالمياه،
حروق الجياد،
وليست هي الفتاة الحية،
التي أسكتوها في قلب الرمال.
وحينئذ.
خرج المقرورون يصدحون بأهازيجهم.
وأشعلت الضفادع أنوارها،
عند ضفة النهر المزدوجة.
تلك البقرة الملعونة. الملعونة. الملعونة. الملعونة،
لن تدعنا ننام، كما قال الفريسيون.
وابتعدوا نحو بيوتهم عبر ضجة الطريق،
يد فعون السكارى ويبصقون ملح الأضاحي،
بينما الدماء تلاحقهم بثغاء الخراف.

* * *

كان هذا ما حدث،
واستيقظت الأرض،
تنفض عن نفسها،
أنهارًا راجفة من العثة.

نيويورك ١٨ أكتوبر ١٩٢٩م

هنداوي